

كيف غيّر السابع من أكتوبر الشرق الأوسط

بعد 3 سنوات على السابع من أكتوبر، هل نتجه نحو «تطبيع بحكم الأمر الواقع» بين إسرائيل والدول العربية؟

بقلم إدوار شابلو-مايستراتشي وأنترانيك كيفوركيان، محللين في الشؤون الدولية، وبيار كليريه، خبير في العلاقات الدولية

هذه ترجمة للنص الأصلي باللغة الفرنسية: « Comment le 7 octobre a changé le Moyen-Orient »



تقديم

قبل عامين في مثل هذا اليوم، عاشت إسرائيل أكبر صدمة في تاريخها منذ عام 1948، مع الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها جماعة حماس الإرهابية. ولم يقتصر أثر هذا الهجوم على إشعال حرب في قطاع غزة، بل أحدث أيضاً انقلاباً في موازين القوى في الشرق الأوسط. فإذا كانت حماس قد أرادت تقويض التقارب بين الدول العربية السنية وإسرائيل، فإنها في الواقع أوجدت تلاقياً في المصالح بين هذه الدول حين جعلتها تتفق على عدو واحد: الإرهاب الإسلامي الذي تغذيه بخاصة الأذرع الإيرانية.

يحتل الشرق الأوسط مكانة بالغة الأهمية في تاريخ البشرية والحضارات. وما تسميته الشائعة بـ«مهد الحضارة» إلا تذكير بأن هذه المنطقة شهدت ظهور مكوّنين أساسيين من مكوّناتها، هما الزراعة وأولى الآثار المهمة للاستقرار البشري. إذ تحدد الأبحاث بدايات الزراعة في القرن العاشر قبل الميلاد، وتضعها جغرافياً في «الهلال الخصيب»¹، وهي منطقة ملائمة على نحو خاص للزراعة والاستقرار بفضل خصوبة تربتها. وفي هذه المنطقة أيضاً، وتحديداً في بلاد ما بين النهرين²، بدأ البشر يستقرون استقراراً دائماً ويؤسسون ما سيتخذ لاحقاً شكل دول المدن.

وستشهد بلاد ما بين النهرين ولادة الكتابة المسمارية، التي سُميت كذلك لأن علاماتها تشبه المسامير أو الأسافين، واستُخدمت من الأناضول إلى إيران ومن مصر إلى جبال ألبز³، كما ستكون مسرحاً لنشوء أولى العلاقات التجارية. أما الإسلام، الدين الذي ظهر بعد الهندوسية واليهودية والمسيحية، فسيولد في مطلع القرن السابع الميلادي⁴ في شبه الجزيرة العربية⁵، وسيكون له دور حاسم في نشوء الإمبراطورية العربية وفي إشعاع حضارتها.

وعلى مرّ العصور، لم يفقد الشرق الأوسط شيئاً من أهميته في المعادلة العالمية، بل إن دوره اليوم أشدّ حضوراً من أي وقت مضى. فكما أن ما يجري في أميركا الشمالية، ولا سيما في الولايات المتحدة، يؤثر في حياة الغالبية العظمى من سكان هذا الكوكب، فإن الأحداث التي يشهدها الشرق الأوسط تلقى صدى واسعاً على المستوى العالمي. وهذه الأحداث، سواء أكانت ذات طابع ديني أم نزاعي أم ديموغرافي أم ثقافي، تحظى بتغطية إعلامية عالمية وتترتب عليها عواقب لا تقل عنها اتساعاً. يضاف إلى ذلك أن التطور التكنولوجي المتسارع لوسائل الاتصال يجعلنا جميعاً نعيش أحداث الشرق الأوسط لحظة بلحظة.

¹ تسمية جغرافية غير رسمية للمنطقة الممتدة من شمال مصر حتى الجزء الغربي من إيران، وتشمل مناطق من سوريا وتركيا والعراق. وقد سُميت كذلك لأن شكلها يشبه الهلال.

² تقع بلاد ما بين النهرين في قلب الهلال الخصيب، وتقابل في جوهرها العراق الحالي.

³ <https://lejournal.cnrs.fr/nos-blogs/breves-mesopotamiennes/les-ecritures-cuneiformes-comment-ca-marche>

⁴ يبدأ التقويم الإسلامي في عام 622 من التقويم الميلادي، وهو ما يُعرف بالهجرة.

⁵ <https://www.imarabe.org/fr/religion>

تهدف هذه الدراسة إلى عرض الأحداث التي تُعد من أبرز رهانات الشرق الأوسط اليوم. ولا بد بطبيعة الحال من تناول الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وتصاعد حدته في أعقاب الهجمات الإرهابية في السابع من أكتوبر، مع وضعه في السياق الأوسع لـ«حرب الظل» التي تخوضها إيران ضد دولة إسرائيل عبر وكلاء إقليميين. وينبغي الربط بين هذين الموضوعين والتميز بينهما في آن واحد. كما سنتطرق إلى التهديد الذي يمثله التيار الإسلاموي، على الصعيدين الأمني والسياسي، آخذين في الاعتبار المستجدات في سوريا، والشبكة العابرة للحدود لجماعة الإخوان المسلمين، فضلاً عن حصيلة «الحرب على الإرهاب» والتحالف الدولي ضد داعش.

وسنحاول استشراف مستقبل الشرق الأوسط. كيف يمكن التوصل إلى حل دائم وعادل للصراع الإسرائيلي الفلسطيني؟ ما أفضل السبل لإبعاد إيران عن النادي النووي؟ كيف يمكن إسقاط «محور المقاومة»؟ وما أنجع الوسائل لتشجيع تطبيع العلاقات بين الدول العربية وإسرائيل؟

- 2 تقديم
- 5 منطقة منقسمة ومعقدة
- 5 تعريف ذو طبيعة جيوسياسية
- 6 دور اتفاقية سايكس بيكو
- 7 ثقل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني
- 11 العامل الديني، عنصر حاسم
- 14 جامعة عربية معطّلة، رمز الانقسامات الإقليمية
- 16 انسحاب أميركي مدروس ونهاية هيمنة المحافظين الجدد
- 19 الحقائق الجديدة في الشرق الأوسط
- 19 إسرائيل في مواجهة «محور المقاومة»
- 20 إسرائيل ضد حماس: حرب السابع من أكتوبر
- 24 حزب الله في طريقه إلى نزع السلاح
- 26 الحوثيون، الوكيل الذي يهزّ البحر الأحمر
- 28 «حرب الظل»: إيران في موقع غير موثّق
- 33 الاضطرابات المرتبطة بالتهديد الإسلامي
- 33 في سوريا، نظام جديد وشكوك قائمة
- 37 الإخوان المسلمون، التهديد العابر للحدود للإسلام السياسي
- 42 منذ السابع من أكتوبر: الطريق نحو شرق أوسط جديد
- 43 شرق أوسط يتجه نحو السلام؟
- 43 الحل الفلسطيني الذي لا غنى عنه
- 48 مواصلة مسار التطبيع بين إسرائيل وجيرانها
- 52 شرق أوسط متخلص من الإسلامية بجميع أشكالها
- 53 تحييد الأذرع الإيرانية الإرهابية
- 62 إقصاء إيران من النادي النووي
- 67 التصدي لعودة داعش
- 71 كيف أعاد 7 أكتوبر تشكيل المنطقة
- 71 ما التداعيات على انتخابات 27 أكتوبر في إسرائيل؟
- 72 بعد عام على خطة ترمب للسلام: العقبات الأخيرة
- 73 أول 7 أكتوبر بعد الحرب على إيران: ما التداعيات الإقليمية؟
- 75 خاتمة

منطقة منقسمة ومعقدة

تعريف ذو طبيعة جيوسياسية

إذا كان استخدام مفهوم «الشرق الأوسط» يحظى اليوم بإجماع واسع، فإن الأمر لم يكن دائماً على هذا القدر من الوضوح. فكما يُبين مقتطف من أرشيف صحيفة «لوموند»⁶، تعايش مفهوما «الشرق الأوسط» و«الشرق الأدنى» زمناً طويلاً من دون أن يُعرف على وجه الدقة كيف يُميّز بينهما.

ويعود ذلك أساساً إلى أن تعريف هذه المنطقة وتحديد نطاقها ظلاً طويلاً محكومين بالمصالح الجيوسياسية لمختلف الفاعلين الغربيين، لا بمعايير جغرافية أكثر ثباتاً مثل حدود الدول التي تتألف منها. ولما كانت هذه المصالح متغيرة بالضرورة وتتبدل بحسب القوة المهيمنة، فقد جاء المفهوم المستخدم متحركاً بتعاقب العصور.

قبل الحرب العالمية الثانية، كانت فرنسا تستخدم تسمية «الشرق الأدنى» للإشارة إلى البلدان الواقعة شرق البحر المتوسط التي كانت لها فيها مصلحة سياسية مباشرة، أي لبنان وسوريا. ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت عصبة الأمم⁷ قد منحت فرنسا انتداباً على هذين البلدين لتأمين انتقالهما، بعد زوال الدولة العثمانية، حتى نيلهما الاستقلال، وهو ما سنعود إليه لاحقاً.

ومع تكريس الولايات المتحدة هيمنتها العالمية وامتداد مصالح الغرب إلى شرق المنطقة، بدأ المراقبون يتخلّون عن مفهوم «الشرق الأدنى» لصالح مفهوم «الشرق الأوسط» (Middle East)، الذي صاغه عام 1902 الاستراتيجي العسكري الأميركي ألفريد ماهان للدلالة على المنطقة الواقعة بين أوروبا، التي كانت تُعد «الشرق الأدنى» (near east) في المنظور الأميركي، والهند، التي كانت تمثل «الشرق الأقصى» (far east)⁸. وكان الأدميرال ماهان يرى في هذا الجزء من العالم نقطة ضعف محتملة لدى البريطانيين في مواجهة الخطر الروسي. ويُشار أحياناً إلى هذا التنافس في المصالح باسم «اللعبة الكبرى» (Great Game)⁹. وتشمل هذه المنطقة اليوم مصر والأردن وسوريا ولبنان وتركيا وإسرائيل والأراضي الفلسطينية (أي قطاع غزة والضفة الغربية) والعراق وإيران واليمن، إضافة إلى دول

⁶ https://www.lemonde.fr/archives/article/1945/07/17/proche-orient-du-moyen-orient_1865347_1819218.html

⁷ أنشئت عصبة الأمم بمناسبة معاهدة فرساي الموقعة في 28 يونيو 1919، وهي سلف منظمة الأمم المتحدة، وكان هدفها تعزيز التعاون الدولي وتحقيق السلام والأمن.

⁸ Freeman, Chas W. Jr. « The Middle East, America, and the Emerging World Order », Middle East Policy Council كلمة أُلقيت في الجامعة الوطنية للبحوث - المدرسة العليا للاقتصاد (National Research University Higher School of Economics).

⁹ Engelsberg Ideas. « The Geopolitics and Grand Strategy of Alfred Thayer Mahan », 2025

الخليج (السعودية والإمارات العربية المتحدة والكويت والبحرين وعمان وقطر). ومما يدل على شيوع تسمية «الشرق الأوسط» أن البلدان المعنية نفسها تتحدث بدورها عن «الشرق الأوسط» بالعربية¹⁰.

ويشهد شيوع استخدام المفهوم الأوسع، أي «الشرق الأوسط»، على اتساع المصالح الغربية والرهانات الجيوسياسية في المنطقة. وهي بطبيعة الحال رهانات اقتصادية، نظراً لأهمية قناة السويس والبحر الأحمر في المبادلات الدولية، وكذلك لاحتياجات المحروقات التي تملكها دول الخليج. وللمنطقة فضلاً عن ذلك دلالة خاصة من الناحيتين الثقافية والدينية. ثم إن لبلدان الشرق الأوسط جاليات في مختلف الدول الغربية، ولا سيما في أوروبا، فتكون للأحداث الإقليمية تداعيات عالمية عبر ما يُسمى أحياناً «الشارع العربي». وهذا الأخير أحد عوامل عولمة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وهي عولمة تعززت منذ بدء الحرب في غزة، بسبب الدور الذي تؤديه شبكات التواصل الاجتماعي خصوصاً، وكذلك بسبب توظيف سياسي سنعود إليه أدناه.

وفي هذا الإطار، يختزل الصراع بين إسرائيل وحماس التوترات القائمة، وقد ازدادت حدته منذ هجوم الحركة الإرهابية في السابع من أكتوبر 2023 والحرب التي شنتها الدولة العبرية رداً عليه. وهذا الصراع، وإن لم يستوف من الناحية التقنية معايير حرب الحضارات، يندرج في صراع حضاري أوسع تقف فيه الجمهورية الإسلامية الإيرانية ووكلائها، الداعون إلى مجتمعات مؤسمة، في مواجهة الولايات المتحدة، حاملة لواء الديمقراطية والقيم الكونية، وإسرائيل التي يعدّها نظام الملالي تابعاً إقليمياً لواشنطن.

وتُحدث هذه الحرب تحولات إقليمية عميقة تفضي إلى مخاطر أمنية كبيرة على الدول العربية والأوروبية، التي باتت مضطرة إلى التعامل مع إرهاب متعدد الأشكال لا يعرف حدوداً.

دور اتفاقية سايكس بيكو

عشية الحرب العالمية الأولى، كانت الدولة العثمانية قد خسرت أراضي كثيرة، مثل المغرب العربي وبعض أراضي البلقان وقبرص والقوقاز. غير أن إمبراطوريتها ظلت واسعة، تمتد من إسطنبول إلى المناطق الواقعة جنوب مكة، وتضم سوريا الحالية والأراضي التي باتت اليوم جزءاً من العراق، فضلاً عن الأراضي الفلسطينية والقدس. وكانت الدولة العثمانية آنذاك تحت حكم «تركي الفتاة»، فرأت في الحرب العالمية الأولى فرصة لتوطيد قبضتها على ما بقي في حوزتها من أراضٍ، بعد أن اضطرت إلى التخلي عن ألبانيا إثر هزيمتها في حرب البلقان الأولى¹¹. فتحالفت مع ألمانيا والنمسا-المجر، ودخلت الحرب منذ

¹⁰ Florian Louis, Atlas historique du Moyen-Orient, Autrement, 2020, ص 9.

¹¹ بعد هزيمة الدولة العثمانية أمام العصبة البلقانية، ستعترف معاهدة لندن الموقعة في مايو 1913 باستقلال ألبانيا.

خريف 1914¹².

وفيما كانت القوات العثمانية تمنى بهزائم متتالية أمام قوات الوفاق الثلاثي، الذي ضم فرنسا وروسيا والمملكة المتحدة، سعى الفرنسيون والبريطانيون إلى استثمار هذا التفوق لتفكيك الدولة العثمانية من الداخل. وكانت الفكرة إثارة الشعوب العربية المختلفة على السلطنة. فتوجّه المندوب السامي البريطاني في مصر، السير هنري مكماهون، إلى شريف مكة¹³ الحسين بن علي، ووعده بإقامة دولة عربية مستقلة يتولى هو رئاستها إن هو ساند الحلفاء في مواجهة القوات الألمانية التركية. وفي موازاة ذلك، أبرم في 16 مايو 1916 اتفاق بين المملكة المتحدة، ممثلة بوزير خارجيتها السير إدوارد غراي، وسفير فرنسا بول كامبون. وقد عُرف في البداية باتفاق كامبون-غراي، قبل أن تستقر تسميته نهائياً على سايكس بيكو، نسبة إلى المفاوضات التي أجراها لاحقاً المقدم البريطاني السير مارك سايكس والقنصل الفرنسي في بيروت فرانسوا جورج-بيكو.

وإذ تشارك الموقعون على اتفاقية سايكس بيكو الخشية من بروز قومية عربية تهدد مصالحهم الإقليمية واستقرار الأراضي المعنية، قرروا عدم التخلي عن إدارة الدول القائمة فيها. فإذا كانت الاتفاقية تنص فعلاً على تقسيم ما كان يشكل آنذاك الدولة العثمانية إلى عدة دول عربية، فقد تقرر أن يتولى الفرنسيون والبريطانيون الوصاية عليها، بدل أن تُعهد إدارتها إلى الشريف حسين بن علي. وبعد انتصار الوفاق الثلاثي وسقوط الدولة العثمانية، سثبتت اتفاقية سايكس بيكو نهائياً عام 1920 في مؤتمر سان ريمو. وخلافاً لما يُروى في أغلب الأحيان، لم يرسم التقسيم المنبثق عن هذه الاتفاقية حدوداً، إذ رُسمت هذه الحدود في مراحل لاحقة، بل اكتفى بتوزيع مناطق نفوذ واسعة بين البريطانيين والفرنسيين. وبموجب هذه الاتفاقية، ستمنح عصبة الأمم فرنسا انتداباً على لبنان وسوريا، فيما ستمنح المملكة المتحدة انتداباً على بلاد ما بين النهرين، التي تقابل العراق الحالي، وعلى فلسطين. وكان هذا الانتداب على فلسطين يشمل آنذاك شرق الأردن مستقبلاً، الذي سيصبح الأردن في 25 مايو 1946، وأراضي إسرائيل الحالية، وكذلك قطاع غزة والضفة الغربية.

ثقل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

لا يمكن فصل مستجدات الأراضي الفلسطينية عن الصراع الذي يضع سكانها منذ زمن طويل في مواجهة جარهم العبري، دولة إسرائيل. وقد تجسدت التوترات في أربع حروب عربية إسرائيلية ونزاعات بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ثم ازدادت حدة في أعقاب الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها إرهابيو

¹² مع أن التحالف وُقّع في 2 أغسطس 1914، فإن الدولة العثمانية لن تدخل الحرب رسمياً إلا في 29 أكتوبر 1914 بقصفها مدينة أوديسا.

¹³ منصب الشريف، الذي كان يُسند تقليدياً إلى الأسرة الهاشمية، يجعل شاغله حامي الأماكن المقدسة في الإسلام.

حماس¹⁴ في السابع من أكتوبر 2023. والقضية الفلسطينية، التي باتت اليوم ذات صدى عالمي، لم تكفّ عن كونها موضع خلاف إقليمي منذ وُضعت الأراضي الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني قبل أكثر من قرن.

في عام 1922، عهدت عصبة الأمم إلى البريطانيين بإدارة فلسطين بهدف احتواء أعمال العنف التي كانت تهز الإقليم وتطبيق وعد بلفور الصادر عام 1917. ففي هذه الوثيقة، التي اتخذت شكل رسالة، أعلنت الحكومة البريطانية، عبر وزيرها آنذاك آرثر بلفور، تأييدها «إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». وسيقتصر الانتداب البريطاني على فلسطين وحدها، إذ قررت لندن استثناء شرق الأردن منه في بادرة هدفها تهدئة المجموعة العربية. وسينتهي الانتداب البريطاني عام 1947 من دون أن يُترجم وعد بلفور رسمياً، غير أن هذه الوثيقة ستشكل، إلى جانب نشر بيان بعنوان «دولة اليهود»¹⁵ نظّر فيه تيودور هرتزل للصهيونية، أحد أسس دولة إسرائيل. والصهيونية عقيدة وحركة سياسية ودينية تدعو إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين وتوطيدها. ويحيل اسم «الصهيونية» إلى تلة صهيون التي شُيّدت عليها قلعة داود¹⁶.

وأمام تعقّد الوضع، لجأت الحكومة البريطانية إلى منظمة الأمم المتحدة (المشار إليها فيما يلي بـ«الأمم المتحدة»)، التي شكّلت لجنة خاصة برئاسة القانوني السويدي إميل ساندستروم لتسوية «قضية فلسطين». واقترحت هذه اللجنة خطة تقسيم ترمي إلى إقامة دولتين ذواتي سيادة، دولة يهودية ودولة عربية، ومنح القدس وضع المدينة الدولية. وكانت الأرض المخصصة للدولة اليهودية، وفق خطة التقسيم، تمثل 55% من أراضي فلسطين الانتدابية.

وفي 29 نوفمبر 1947، طرحت الجمعية العامة للأمم المتحدة للتصويت القرار 181 الذي ينص على اعتماد خطة التقسيم. وقد أُقرّت بأغلبية 33 صوتاً مقابل 13 صوتاً وامتناع 10 عن التصويت. ورغم هذا التصويت، لم تُطبّق خطة التقسيم قط بسبب الرفض الجماعي للدول العربية. ومنذ اليوم التالي، اندلعت أعمال عنف في القدس، ونشبت حرب أهلية في فلسطين بين السكان اليهود والعرب. وفي 14 مايو 1948، أنهت المملكة المتحدة انتدابها على فلسطين، فيما أعلن ديفيد بن غوريون، رئيس المجلس القومي اليهودي آنذاك، قيام دولة إسرائيل.

¹⁴ حماس هي الفرع الفلسطيني لجماعة الإخوان المسلمين، واسمها اختصار لـ«حركة المقاومة الإسلامية» (Harakat al-Muqawarma al-Islamiya). وقد أسست عام 1987 وتبنّت ميثاقاً تأسيسياً في العام التالي.

¹⁵ نُشر هذا البيان عام 1896، وهو ينظر لإقامة دولة مستقلة حلاً لمعاداة السامية المنتشرة في أوروبا. ويُعد تيودور هرتزل أباً الصهيونية.

¹⁶ <https://www.lejdd.fr/international/quest-ce-que-le-sionisme-144634>

وعلى الفور، أعلن تحالف من الدول العربية يضم لبنان ومصر وسوريا والأردن والعراق الحرب على إسرائيل، في ما سيُعد الحرب العربية الإسرائيلية الأولى. وفي ختامها، في يناير 1949، صدّت إسرائيل التحالف العربي وباتت تسيطر على 77% من الأراضي التي كانت خاضعة للانتداب البريطاني.

وجاءت الحرب العربية الإسرائيلية الثانية عام 1956 مع أزمة قناة السويس. فحين قرر الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس ومنع السفن التي ترفع العلم الإسرائيلي من عبورها، دخلت قوات تل أبيب قطاع غزة وسيناء المصرية في 29 أكتوبر من العام نفسه. وساندت القوات الإسرائيلية غارات جوية فرنسية وبريطانية بدأت في 31 أكتوبر. وانتهى النزاع بوقف لإطلاق النار أقرته الأمم المتحدة في 2 نوفمبر 1956 بدفع من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي السابق. وتقرر نشر قوة طوارئ تابعة للأمم المتحدة لإعادة السلام. وكان ذلك أول تدخل مسلح لـ«القبعات الزرق» التي يعود ظهورها إلى عام 1948¹⁷.

ووقعت الحلقة الثالثة من الحروب العربية الإسرائيلية عام 1967، في حرب الأيام الستة التي دارت من 5 إلى 10 يونيو 1967. ففي عام 1966، كانت التوترات شديدة بين إسرائيل وسوريا والأردن على خلفية حوادث حدودية وعمليات منظمة التحرير الفلسطينية. لكن طرد مصر للقبعات الزرق هو ما سيُنظر إليه بوصفه الشرارة التي أشعلت هذا النزاع الجديد، إذ خشيت إسرائيل أن تجد نفسها محاصرة. وخرجت الدولة العبرية منتصرة من هذه الحرب، التي انتهت بوقف لإطلاق النار أُعلن في 10 يونيو 1967، واستولت فيها إسرائيل على القدس الشرقية وهضبة الجولان والضفة الغربية وشبه جزيرة سيناء وقطاع غزة.

وقد عاش الرئيس المصري أنور السادات الوجود الإسرائيلي في شبه جزيرة سيناء إهانةً، فقرّر، بدعم من نظيره السوري حافظ الأسد الراغب بدوره في استعادة هضبة الجولان الواقعة غرب سوريا، شنّ هجوم مباغت لاستعادتها في 6 أكتوبر 1973. وقد فاجأ هذا الهجوم، الذي وقع في يوم عيد الغفران اليهودي (يوم كيبور)¹⁸ وفي شهر رمضان¹⁹، الجيش الإسرائيلي.

غير أن تل أبيب تمكنت من الرد ودفع القوات المصرية والسورية نحو عاصمتي البلدين، قبل أن يُعلن وقف لإطلاق النار في 25 أكتوبر 1973. ولم يُكرّس السلام رسمياً بين إسرائيل ومصر إلا في 26 مارس 1979، بتوقيع معاهدة في واشنطن.

¹⁷ Nations Unies - Opérations de maintien de la paix. « Nos Casques bleus », الأمم المتحدة، 2025.

¹⁸ في التقليد اليهودي، يمثل هذا اليوم نعمة إلهية بالغفران لشعب إسرائيل وللغرباء.

¹⁹ شهر رمضان، المقدس لدى المسلمين، يُحيي ذكرى نزول القرآن على النبي محمد.

وخلال العقود التالية، شهد قطاع غزة انتفاضتين. اندلعت الأولى في 9 ديسمبر 1987، حين هاجم فلسطينيون الجنود الإسرائيليين بالحجارة، ولذلك سُمّيت هذه المرحلة بـ«انتفاضة الحجارة». وقد وضعت اتفاقات أوسلو الموقعة عام 1993، برعاية الرئيس الأميركي بيل كلينتون، حداً لهذا النزاع الذي أودى بحياة 1260 فلسطينياً، و970 فلسطينياً اتهمهم أبناء جلدتهم بخدمة القضية الإسرائيلية، و205 إسرائيليين.²⁰

وفي عام 2000، فيما كان الفلسطينيون يطالبون بالاعتراف بالقدس الشرقية عاصمة لفلسطين، أعلنت إسرائيل أن شطري المدينة يشكلان العاصمة «الأبدية وغير القابلة للتقسيم» للدولة العبرية. وكانت زيارة أرييل شارون، الذي تولى رئاسة الحكومة الإسرائيلية بدءاً من عام 2001، إلى القدس في سبتمبر 2000 هي التي أشعلت الانتفاضة الثانية. فقد اعتبر الفلسطينيون حضوره في جبل الهيكل، المكان المقدس لدى اليهود، أي الحرم القدسي الشريف، ثالث الأماكن المقدسة في الإسلام، استفزازاً، وأفضى ذلك إلى عمليات انتحارية نفذتها حماس وحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين²¹، ردّ عليها الجيش الإسرائيلي بالقصف. ولم تنتهِ الانتفاضة الثانية إلا عام 2005، حين قررت إسرائيل الانسحاب من قطاع غزة. أما هجوم السابع من أكتوبر 2023، الذي قتل فيه 5000 إرهابي من حماس 1200 إسرائيلي وخطفوا 240 آخرين، فقد دفع إسرائيل إلى دخول غزة مجدداً.

وقد رافق هذا الصراع استغلالاً سياسي من طرفي رقعة الشطرنج السياسية، يجعل أي نقاش أو بحث عن تسوية أمراً بالغ الحساسية. ولا بد من التوضيح مع ذلك أن أحزاب أقصى اليسار تتحمل قسماً أكبر من المسؤولية في هذا الواقع، بسبب العنف بعض التظاهرات في أوروبا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، وبسبب خطاب معادٍ للسامية وتحريضي عن قصد، لأغراض انتخابية، أسهم في إطلاق موجة معاداة السامية²² التي تضرب المجتمعات الغربية منذ هجمات السابع من أكتوبر. فحين يقَدّم ممثلو أقصى اليسار الغربي الإسرائيليين خاصة واليهود عامة على أنهم مستعمرون بلا استثناء، لا يكتفون لمعاداة الشعب الفلسطيني، فإنهم يشيطنونهم ويجعلونهم هدفاً لأعمال العنف المعادية للسامية. وفي المقابل، يُظهر أقصى اليمين دعمه لإسرائيل، ويميل إلى الإيحاء بأن العالم العربي الإسلامي عموماً والفلسطينيين خصوصاً معادون للسامية ويدعمون حماس، في ما يقَدّمه على أنه مقدمة لحرب حضارات. وإذا كان صحيحاً أن الشعب الفلسطيني انتخب حماس، فلا يجوز أن يُستنتج من ذلك أن جميع الفلسطينيين يؤيدون هجمات السابع من أكتوبر ويشاطرون الإرهابيين رغبتهم في تدمير إسرائيل. كما ينبغي أن يؤخذ في الحسبان أن تصويت بعض ناخبي حماس ربما أملاه الإكراه أحياناً، أو اعتبارات أخرى،

²⁰ Le Figaro. « Israël-Palestine : qu'est-ce qu'une intifada ? » (إسرائيل-فلسطين: ما الانتفاضة؟)، 7 Le Figaro، ديسمبر 2017.

²¹ ظهرت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين مطلع ثمانينيات القرن الماضي، وتتميز عن حماس برفضها تحمّل أي مسؤولية سياسية. وهي تتبنى نهجاً أكثر تشدداً من نهج الإخوان المسلمين، وتستلهم الثورة الإيرانية عام 1979.

²² <https://www.spcj.org>

أو حتى غياب بديل ذي مصداقية. إن العداء وغياب التعاطف بين الشعبين أمران قائمان، لكن لا ينبغي تعميمهما، وإلا استحالت كل مصالحة. وهذا تحديداً ما يفعله، بوعي أو من دونه وبدرجات متفاوتة، المسؤولون في أقصى اليسار وأقصى اليمين. وإذا كان من الوهم انتظار أن تتخلى الأحزاب السياسية المعنية عن مواقفها، فمن الضروري أن يكون ناخبوها على قدر الرهانات، كي لا تجعل العاطفة غير العقلانية، مقرونة بالتضليل، أي حل عادل ودائم بعيد المنال.

ومن المهم بالقدر نفسه أن ندرك أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ليس حرب حضارات، بل هو بالأحرى نزاع على الأرض تتعدد تداعياته. فالأردن لم يتردد في حماية إسرائيل من الهجمات الإيرانية. وفي المقابل، ينحاز جزء من الشباب الغربي إلى فلسطين انطلاقاً من منطق «الووكية»²³ و«التقاطعية»²⁴. وقد لخص محمد سيفاوي تعقيد هذا الصراع على أكمل وجه حين أشار إلى أن «فريقاً، وإن نشأ في كنف فكر الأنوار، له حلفاء في العالم الإسلامي، والفريق الآخر، وإن حمل مشروعاً ظلامياً، وجد له مناصرين في العالم الغربي»²⁵.

إن التوصل إلى حل قابل للحياة ودائم يقتضي إخراج النقاش من دائرة الانفعال، والتذكير بأنه لا يوجد معسكران متمايزان ومتجانسان. فمن الخطأ القول إن جميع الإسرائيليين والعالم الغربي بأسره لا يكرثون لمعاناة الفلسطينيين. فالاستثمار في المشاريع الإنسانية، والتظاهرات السلمية، وانقسام الرأي العام الإسرائيلي والدولي حول القضايا المتصلة بذلك، كلها شواهد على العكس. وبالمثل، لا يمكن اختزال الشعب الفلسطيني والعالم العربي الإسلامي في جماعة تشاطر حماس أجندتها المعادية للسامية والإرهابية. بهذا الثمن وحده يمكن التفكير في تهدئة العلاقات بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

العامل الديني، عنصر حاسم

قبل ظهور الإسلام في مطلع القرن السابع الميلادي، كانت أديان ومعتقدات عدة تتعايش في جزيرة العرب قبل الإسلام، ومنها ضروب مختلفة من الوثنية العربية، والمسيحية، واليهودية. ومارس النبي محمد وصحابته الدين الإسلامي في مكة ثم في المدينة. وبعد وفاة النبي محمد عام 632، اختير أبو بكر، الذي يُعد أول من أسلم، خليفة. واندلعت «الفتنة الكبرى» عام 655 على خلفية خلافات حول تعيين الخليفة الرابع ومستقبل الإسلام السياسي²⁶. فالمؤمنون الذين سيصبحون الشيعة (أي «الأنصار» حرفياً) أيّدوا علياً، صهر النبي وابن عمه، فيما رأى من سيصبحون السنة أن الخلافة ينبغي أن تؤول إلى معاوية²⁷.

²³ «الووكية» (le wokisme) تيار نشأ في الولايات المتحدة، يندد بالمظالم وأشكال التمييز التي تتعرض لها مختلف الأقليات العرقية والدينية والجنسية.

²⁴ «التقاطعية» تيار في علم الاجتماع يرى أن جميع أشكال التمييز والقهر ينبغي أن تُتناول بصورة مترابطة ومنهجية. وهي امتداد للفكر «الووكي».

²⁵ Mohamed Sifaoui, Hamas : plongée au coeur du groupe terroriste (حماس: غوص في قلب الجماعة الإرهابية)، 2024، ص 18.

²⁶ Les Clés du Moyen-Orient. « Grande Discorde (al-Fitna al-Kubra) », Les Clés du Moyen-Orient, 2025

²⁷ Webdoc IMArab-Vous-avez-dit-Arabe, 2025 (ما المذهب السني؟)، « Vous-avez-dit-Arabe. « Qu'est-ce que le sunnisme ? »

والي دمشق. وأعلن معاوية نفسه خليفة عام 660، وأسس الدولة الأموية عام 661. واغتيل علي عام 661 على يد الخوارج، الذين كانوا في الأصل من أنصاره، إذ أخذوا عليه سعيه إلى تسوية مع معاوية²⁸.

ومنذ ذلك الحين، يشكل الخوارج تياراً أقلّياً معارضاً سيتفرع لاحقاً إلى فروع عدة. ونجد اليوم خوارج، من فرعهم الإباضي، في عُمان والجزائر وزنجبار وليبيا وتونس²⁹.

وما زال هذا الانقسام الديني بين السنة والشيعة إلى اليوم أمراً جوهرياً لفهم الشرق الأوسط، وهي منطقة تضم ما بين 350 و400 مليون مسلم، غالبيتهم العظمى، ما بين 85 و90%، من أهل السنة.

ويستمد السنة اسمهم من «السنة» (أي «الطريقة» أو «التقليد»)، ويرجعون إلى القرآن والأحاديث³⁰ وحدهما، ولا يضيفون على الأئمة صفة القداسة، إذ يقتصر دور هؤلاء على إمامة الصلاة. والبلدان التي يشكل فيها المذهب السني التيار الغالب هي السعودية ومصر وسوريا والأردن والكويت. وثمة بلدان أخرى أكثر انقساماً بين فرعي الإسلام، مثل اليمن والإمارات العربية المتحدة وقطر. وتحتضن بعض البلدان أيضاً أدياناً أخرى إلى جانب الإسلام، كما هو حال عُمان ولبنان، حيث المسيحية حاضرة في بلد الأرز.

أما البلدان ذات الغالبية الشيعية فهي العراق والبحرين وإيران. ويرى الشيعة أن الإمام من نسل النبي محمد، وأنه بهذه الصفة مرشد للمؤمنين³¹. ومن الطبيعي أن يقتصر المذهب الشيعي بمؤسسة دينية منظمة³². ويتجلى هذا الانقسام الديني في العلاقات القائمة بين مختلف بلدان الشرق الأوسط، ويلقي ضوءاً مهماً على فهم المواقف الجيوسياسية لمختلف الفاعلين الإقليميين. فالعامل الديني والصراع الإسرائيلي الفلسطيني هما العنصران الأساسيان لفهم رهانات الشرق الأوسط.

والبلدان السنية هي الأكثر استعداداً للتقارب مع الغرب، كما تشهد على ذلك المفاوضات المتعلقة باتفاقيات أبراهام التي سنتناولها بتفصيل أوسع في الجزء الثالث من هذه الدراسة. وقد أبرمت هذه الاتفاقيات، التي جرت برعاية الولايات المتحدة خلال الولاية الأولى لدونالد ترامب، تبعاً بين أغسطس وديسمبر 2020، ونصت على تطبيع علاقات الإمارات العربية المتحدة والبحرين والسودان والمغرب مع إسرائيل. وتجدر

²⁸ «En quoi consiste le kharijisme, la "troisième voie" de l'islam ? Vous-avez-dit-Arabe. (ما الخارجية، «الطريق الثالث» في الإسلام؟)، Webdoc IMArab - Vous-avez-dit-Arabe, 2025.

²⁹ المرجع نفسه.

³⁰ الأحاديث هي أقوال النبي محمد وأفعاله.

³¹ https://www.lemonde.fr/les-decodeurs/article/2014/06/20/au-fait-quelle-difference-entre-sunnites-et-chiites_4442319_4355770.html

³² في البلدان ذات الغالبية الشيعية، يشغل آية الله أعلى منصب ديني في المؤسسة الدينية.

الإشارة إلى أن مصر والأردن كانا قد طَبَّعا علاقاتهما مع الدولة العبرية في عامي 1979 و1994 على التوالي.

ويعارض المعسكر الشيعي هذا التوجه، كما يشهد على ذلك الصراع الذي تخوضه إيران ضد الولايات المتحدة، التي تعدّها «الشيطان الأكبر»، وضد إسرائيل والبلدان السنية التي تأخذ عليها القوى الشيعية تطبيع علاقاتها مع تل أبيب. وتقود إيران المحور الشيعي معتمدة على وكلاء أو أذرع إقليمية: المتمرّدون الحوثيون في اليمن، وحزب الله في لبنان، والمليشيات الشيعية في العراق. وكانت سوريا في عهد بشار الأسد تُعد أيضاً من حلفاء طهران بحكم انتماء الدكتاتور المخلوع إلى الطائفة العلوية، والأقلية العلوية فرع من الإسلام الشيعي. وتجدر الإشارة إلى أن هذا التمييز الناشئ عن الانقسام الديني لا يحدد سلفاً أي استراتيجية دبلوماسية. فإيران، البلد الوحيد الذي يُعد فيه المذهب الشيعي دين الدولة، كانت طويلاً منحازة إلى مصالح المعسكر الغربي، ولا سيما في عهد أسرة بهلوي (المعروفة أيضاً باسم شاه إيران). وبالمثل، وفي استثناء آخر، تدعم حماس، رغم أنها سنية، إيران الشيعية التي تسلّح بدورها الحركة الإرهابية وتموّلها.

وقد أدى العنصر الديني كذلك دوراً رئيسياً في قيام الجمهورية الإسلامية في إيران. فسقوط الشاه محمد رضا بهلوي عام 1979 جاء نتيجة معارضة شعبية متعددة العوامل احتكرها آية الله الخميني في وجه تغريب المجتمع. فـ«الثورة البيضاء» التي أطلقها الشاه عام 1962 كان يُفترض أن تقود إيران على طريق التحديث. غير أن هذا التحديث، الذي كان ينطوي على قدر من التغريب، أثار سخط جزء من المعارضة جسّده آية الله الخميني، المنفي في العراق ثم في فرنسا. وتعددت مظالم الشعب حيال نظام الشاه. فقد دفعت سياساته الاقتصادية العالم الزراعي إلى الاحتجاج. وعانى الشعب الإيراني بشدة من آثار الصدمة النفطية عام 1973 وما نجم عنها من ركود. ومع ارتفاع البطالة والتضخم، لم تتخذ السلطة أي سياسة لدعم ضحايا اقتصاد يعاني صعوبات جسيمة. وأخذ هذا الاستياء ذو الطابع الاقتصادي يكتسب تدريجياً بعداً سياسياً أمام تجاوزات الشاه السلطوية، إذ كان يسجن المعارضين ويقمع التظاهرات عبر شرطة سياسية وحشية هي «السافاك»³³. وقد تضخمت هذه المطالب بفعل سياسة خارجية قريبة من الغرب، شهدت تقارب الشاه مع الولايات المتحدة، فأثارت غضب الأوساط المحافظة. وستجسد هذه المظالم المختلفة في شخص الخميني الذي عرف، رغم وجوده في المنفى، كيف يستثمر رموزاً أساسية لتوحيد الثورة تحت راية الإسلام الجامعة.

وتجسد احتفالات برسبوليس، التي نُظمت عام 1971 بمناسبة الذكرى الـ2500 لتأسيس الإمبراطورية الفارسية، على أكمل وجه الطبيعة غير المتجانسة للمظالم التي كان المجتمع الإيراني

³³ كان «السافاك» جهاز الأمن الداخلي والاستخبارات في إيران في عهد الشاه.

يحملها ضد السلطة، وقدرة آية الله الخميني على توظيف العامل الديني لتجميعها في حركة ثورية قوية. ففي هذه الاحتفالات، التي تناقضت أبعثها مع اقتصاد متداعٍ، أبرزت رموز سابقة للإسلام تمثل فارس القديمة على حساب الإسلام الذي يعدّها محرّمة³⁴. وكان آية الله يدعو إلى إسلام عادل قريب من الشعب، سيطعى على النزعات الثورية ذات الغلبة الشيوعية. وسيقود رجال الدين التظاهرات، وستؤدي المساجد أدواراً استراتيجية مهمة في تنظيمها. ومن باريس، حظي خطاب الخميني بدعم المعارضة وبتأييد غربي، إذ رأى فيه الديمقراطيون الأميركيون والأوساط الفكرية الأوروبية تعبيراً عن إرادة شعبية ترمي إلى إنهاء الطغيان وإقامة مجتمع يحمي حقوق الإنسان المنتهكة في عهد الشاه.

ولدى عودته إلى إيران في 1 فبراير 1979، عزل آية الله الخميني الجماعات الثورية الأخرى ليصبح الوجه الوحيد للثورة الإيرانية ويُغلب مكوّناتها الديني. ونُظم استفتاء حول السؤال الآتي: «هل تؤيدون استبدال النظام الملكي بجمهورية إسلامية يُقرّ الشعب دستورها؟». وفضلاً عن الغموض الذي اكتنف المضمون اللاحق لمشروع الدستور هذا، هيمنت على الحملة المداخلات الإعلامية لرجال الدين الشيعة. كما تعرّض إجراء الاستفتاء لانتقادات تتعلق بشفافيته. وفازت «نعم» بفارق كبير جداً، بما بين 98 و99% من الأصوات، وأعلنت الجمهورية الإسلامية الإيرانية في 1 أبريل 1979.

جامعة عربية معظلة، رمز الانقسامات الإقليمية

انطلقت فكرة جامعة الدول العربية منذ 25 سبتمبر 1944 مع مؤتمر الإسكندرية الذي أفضى إلى توقيع بروتوكول، ثم تأسست الجامعة رسمياً في 22 مارس 1945 برعاية المملكة المتحدة على يد 6 دول: مصر وسوريا وشرق الأردن (الأردن لاحقاً) والعراق ولبنان والسعودية. وانضم اليمن الشمالي إلى الجامعة العربية في 5 مايو من العام نفسه. وقد فضّلت المملكة المتحدة، بحكم نفوذها في الشرق الأوسط ومصالحها في المنطقة، ووعيتها التام بصعود القومية العربية، تشجيع قيام مؤسسة للتعاون الإقليمي بدل أن تشهد بروز دولة عربية موحدة.

وكان إنشاء هذه المنظمة الإقليمية يرمي في البداية إلى تحقيق أهداف عدة. فمع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها، أبدت دول عربية عدة، بقيادة مصر، رغبة مشتركة في حماية استقلالها. كما أرادت الجامعة العربية أن تكون أداة للتعاون بين الدول العربية في القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والجيوسياسية. وستكون القضية الفلسطينية من العناصر الجامعة، حتى وإن نشأت لاحقاً خلافات بشأن العلاقات مع إسرائيل.

³⁴ في الإسلام، يشمل الشرك (al-Shirk) الإشراف بالله وعبادة الأوثان، وهما يُعدّان من الذنوب.

وتضم الجامعة العربية كتلتين متعارضتين في رؤاهما الجيوسياسية. فالمحور الهاشمي³⁵، المؤلف من الأردن والعراق، منفتح على التعاون مع البريطانيين، فيما تمثل مصر التيار الداعي إلى استقلال أكثر حزماً. ثم استقبلت الجامعة العربية، التي ينص ميثاقها على أن لكل دولة عربية مستقلة الحق في الانضمام إليها، أعضاء جديداً من ليبيا (1954) إلى جزر القمر (1993)، ليلبلغ عدد أعضائها اليوم 22 عضواً. ورغم أنها تضم مؤسسات كثيرة، فإن مجلس الجامعة العربية والأمانة العامة، التي تولاهما مواطن مصري بصورة شبه دائمة، هما أهمها.

غير أن الجامعة العربية لم تؤدّ فعلياً دورها أداةً للتعاون. فإذا كانت القضية الفلسطينية عامل وحدة، إذ أنشأت الجامعة العربية منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964 قبل أن تعترف بها ممثلاً وحيداً للفلسطينيين، فإن العلاقات مع إسرائيل كشفت الانقسامات بين أعضائها. ومثال ذلك رد فعل أعضاء الجامعة حين سلكت مصر والدولة العبرية طريق التطبيع عام 1979. فقد استُبعدت مصر منها، رغم أن عاصمتها كانت مقر المنظمة. ولن يعود هذا العضو المؤسس إلى الجامعة إلا عام 1990.

وما زالت مسألة العلاقات مع الدولة العبرية حتى اليوم العامل الرئيسي للانقسام داخل هذه المؤسسة. فقد سلك طريق التطبيع بعد ذلك الأردن ثم البحرين والإمارات العربية المتحدة ثم المغرب. وإذا كانت بعض الدول، كالسعودية، لا تستبعد أن تحذو حذوها، فإن كتلة تضم الجزائر والعراق وليبيا ولبنان تعارض ذلك. ومنذ إطاحة نظام بشار الأسد في ديسمبر 2024، يتسم موقف السلطات السورية من هذه المسألة بالغموض. وإلى جانب المسألة الإسرائيلية، كان غزو العراق للكويت عام 1990 أيضاً موضع توتر، إذ أرسلت مصر وسوريا قوات لدعم التدخل الأميركي.

وتفسر هذه الخلافات الجيوسياسية العميقة ضالة النجاحات التي يمكن أن تُنسب إلى الجامعة العربية. ثم إن الجامعة لم تنجح قط في أداء مهمتها في المجال الاقتصادي. فبينما كان يُفترض أن تُنشئ سوقاً مشتركة تشبه إلى هذا الحد أو ذاك النموذج الأوروبي المنبثق عن معاهدة روما، لم تُكَلَّل المبادرات المختلفة في هذا الشأن بالنجاح. ومن الناحية المعيارية، تبقى فائدة الجامعة العربية نسبية، إذ لا تتمتع قراراتها بقوة إلزامية على أعضائها. وقد أنهكتها الخلافات، فلم تكن المؤسسة لسان حال القومية العربية، ولا يسعها أن تفخر إلا بنجاحات نادرة جداً، مثل التعاون الجيد بين بعض الدول في مجال مكافحة الإرهاب.

³⁵ الهاشميون هم أحفاد هاشم بن عبد مناف، وقد حكموا العراق من 1920 إلى 1958، ويحكمون الأردن منذ 1921.

انسحاب أميركي مدروس ونهاية هيمنة المحافظين الجدد

اكتسبت حركة المحافظين الجدد بعداً دولياً غداة هجمات 11 سبتمبر 2001، في سياق «الحرب العالمية على الإرهاب» (global war on terror) التي أطلقها جورج دبليو بوش³⁶. وإذا كان المحافظون الجدد قد اشتهروا بتصورهم الهيمني للسياسة الخارجية، التي تشكل القوة العسكرية ذراعها الضاربة، فإن لفكرهم أيضاً جانباً داخلياً لا ينبغي الخلط بينه وبين محافظة ويليام إف. باكلي الابن. فهذا الأخير، الذي يُعد من كبار المفكرين المحافظين، كان يتبنى تصوراً «اندماجياً»³⁷ للمحافظة يمزج بين المحافظة الاجتماعية والقيمية والليبرالية الاقتصادية والسياسية.

وخلافاً للمحافظة الكلاسيكية التي تُعلي من شأن صون التقاليد، يطمح المحافظون الجدد إلى ما هو أبعد من مجرد روح المحافظة، ويريدون أن يكونوا أكثر هجومية في نشر أيديولوجيتهم التي لا يحصرونها داخل الحدود الأميركية. فالمحافظة لا ترفض التغيير، لكنها تتبنى قدراً من الحذر إزاء المستجدات الاجتماعية والقيمية. ويمكن في هذا الصدد الحديث عن موقف رجعي بالمعنى الذي أعطاه إياه الفيلسوف الكولومبي نيكولاس غوميث دافيللا، الذي يرى أن «الرجعي الخالص ليس حنيئاً يحلم بماضٍ ولى، بل هو متعقّب الظلال المقدسة على التلال الأبدية». فالرجعي لا يرفض مبدئياً كل أشكال التطور أو الجديد، لكنه يبدي شكوكاً إزاء الأفكار الجديدة ويرتاب في الثورات التي تكون عواقبها بطبيعتها غير متوقعة. وهو يؤثر الحكمة والشك على الحماسة والنشوة. وبهذا يختلف فكر المحافظين الجدد عن المحافظة في كونه يتسم بنهج القطيعة³⁸. فحركة المحافظين الجدد لا تندرج في الزمن الطويل ولا في الاستمرارية، بل في التجديد. وخلافاً للمحافظة التي ترتاب في أي تدخل للدولة، يعتمد المحافظون الجدد على الدولة ومؤسساتها لنشر أفكارهم. وفي السياسة الخارجية، يتكلمون على الجيش لأداء هذا الدور.

وتعود جذور هذه الحركة إلى ثمانينيات القرن الماضي، حين ازدهرت في عهد إدارتي ريغان في معارضة التقدمية الاجتماعية والاقتصادية التي كان يدافع عنها الديمقراطيون. وبعد سقوط الكتلة السوفياتية، أراد أنصار الحركة الاستفادة من النظام العالمي الجديد الأحادي القطب لتدويل هذه الهيمنة الثقافية والسياسية. وستكون هجمات 11 سبتمبر التي نفذها تنظيم القاعدة على الأرض الأميركية الشرارة التي أطلقت تمديد فكر المحافظين الجدد خارج العالم الغربي، عبر «الحرب العالمية على الإرهاب» التي أعلنها جورج دبليو بوش، الذي كان يرى في الولايات المتحدة «المنارة الأكثر سطوعاً للحرية والتقدم في العالم»³⁹.

³⁶ <https://www.georgewbushlibrary.gov/research/topic-guides/global-war-terror>

³⁷ <https://www.nationalreview.com/magazine/2025/02/why-bill-buckleys-ideas-still-matter/>

³⁸ https://www.causecommune-larevue.fr/conservatisme_et_n_oconservatisme

^^

وترمز الحملتان العسكريتان في أفغانستان والعراق إلى نفوذ المحافظين الجدد، الذين أرادوا إحلال السلام في المناطق المعنية، وتخليص العالم من الإرهاب، وتصدير النموذج الديمقراطي الأميركي عبر «تغيير النظام» (regime change). وقد كاد فشل هذه التدخلات، الذي يرمز إليه عراق غير مستقر والانسحاب الكارثي للقوات من أفغانستان في عهد إدارة بايدن عام 2021، أن يقرع جرس النهاية لفلسفة المحافظين الجدد. وسيؤدي عبء هذه الحملات دوراً لا يستهان به في صياغة عقيدة «أميركا أولاً» (America First)، وهي من الحجج الحاسمة في انتصارات دونالد ترامب الانتخابية.

وعلى غرار فكر المحافظين الجدد، تنطوي عقيدة «أميركا أولاً» على جوانب داخلية ودولية في آن واحد. فإذا كان دونالد ترامب لا يدعو إلى انعزالية كاملة، فإنه يريد حصر التدخلات الأميركية في الحد الأدنى الضروري⁴⁰، ويرفض أن تواصل الولايات المتحدة أداء دور «شرطي العالم» الموروث منذ الحرب العالمية الثانية⁴¹. ويتجلى هذا التحول في النموذج في المساعي الدبلوماسية التي يبذلها دونالد ترامب، ولا سيما في الشرق الأوسط، وفي العلاقات الثنائية الكثيرة التي ينسجها الجمهوري لتقديم المصالح الأميركية في البلدان والمناطق المعنية. وآخر مثال على ذلك الاتفاق الذي توصلت إليه إدارة ترامب مع المتمردين الحوثيين في 6 مايو الماضي. فإذا كانت الحركة الإرهابية اليمنية ستمتنع من الآن فصاعداً عن استهداف السفن الأميركية في البحر الأحمر، فإن مفاعيل هذه الاتفاقات لا تشمل إسرائيل، رغم أنها الحليف التاريخي للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وفي سياق أكثر اقتصادية، كانت الجولة الأخيرة لمؤسس حركة «ماغا» (MAGA، أي Make America Great Again)⁴² في المنطقة في مايو الماضي مناسبة ليُظهر غلبة النهج القائم على الصفقات على مختلف جوانب سياسته، بما فيها السياسة الخارجية. فقد أتاحت رحلة مؤلف كتاب «فن الصفقة» (The Art of the Deal) للولايات المتحدة الحصول على نحو 2000 مليار من الاستثمارات والوعود الاستثمارية من البلدان التي زارها، منها 1400 مليار من الإمارات العربية المتحدة على مدى 10 سنوات⁴³. وثمة عامل آخر يسوقه دونالد ترامب لتبرير هذا الانكفاء النسبي، وهو أن الولايات المتحدة لم تعد بحاجة إلى نفط الشرق الأوسط وغازه منذ أن أصبحت قوة عظمى في مجال الطاقة بفضل إنتاج الغاز الصخري.

غير أن تيار المحافظين الجدد، وإن كان أقلية صغيرة جداً قياساً بحركة «ماغا»، لم يختفِ تماماً من المشهد السياسي الجمهوري. فهؤلاء «الصقور» المعروفون، الذين يتهمهم معلقو «ماغا» بالسعي إلى جرّ

⁴⁰ كان ذلك مثلاً حال اغتيال الجنرال الإيراني قاسم سليماني في 3 يناير 2020.

⁴¹ <https://revue-defense.fr/wp-content/uploads/2024/10/DEFENSE-220-October-2024-JE-Branaa.pdf>

⁴² Make America Great Again، أي حرفياً «لنُعد إلى أميركا عظمتها».

⁴³ <https://www.lesechos.fr/monde/afrique-moyen-orient/video-des-contrats-et-une-polemique-trump-acheve-sa-tournee-dans-le-golfe-2165835>

الولايات المتحدة مجدداً إلى «حرب بلا نهاية»⁴⁴، يؤيدون دعماً أميركياً فاعلاً للهجمات التي تشنها إسرائيل على إيران الملالي، وهو موضوع سنتناوله بالتفصيل لاحقاً.

⁴⁴ <https://www.lefigaro.fr/international/donald-trump-hesite-a-s-engager-militairement-aux-cotes-d-israel-20250615>

الحقائق الجديدة في الشرق الأوسط

إلى جانب الحرب الوجودية التي تخوضها إسرائيل ضد مختلف وكلاء إيران، يشهد الشرق الأوسط اضطرابات أمنية مرتبطة بتهديد إسلاموي يأتي من جبهات عدة. فسقوط نظام بشار الأسد في سوريا، مقروناً بعودة تنظيم الدولة الإسلامية في بعض البلدان مثل العراق وسوريا، يزيد من المخاطر الإرهابية. ويضاف إلى ذلك النفوذ السياسي لجماعة الإخوان المسلمين، وهي تنظيم محظور في بلدان كثيرة يدعو إلى نشر الإسلام السياسي بصورة خفية وتدرجية.

إسرائيل في مواجهة «محور المقاومة»

كان لمذبحة السابع من أكتوبر أثر إقليمي بالغ، وينبغي النظر إلى الحرب التي اندلعت رداً عليها من زوايا مختلفة: زاوية المواجهة المباشرة بين الجيش الإسرائيلي وحماس، وكذلك زاوية الطموحات التوسعية لطهران. وتعود هذه الطموحات إلى وصول الملالي إلى السلطة عام 1979، وتتجلى في منطق ميليشياوي عابر للحدود يُعرف بـ«محور المقاومة».

فحين سقطت إيران تحت نير الجمهورية الإسلامية المعلنة في 1 أبريل 1979، طغى المكوّن الديني على أي اعتبار آخر. وأخذ آية الله الخميني، مؤسس هذا النظام، على عاتقه مهمة محاربة من كان يعدّهم أعداءه في الداخل والخارج. وجاء تأسيس الحرس الثوري الإسلامي استجابة لرغبة القادة الجدد في فرض الشريعة الإسلامية على المجتمع الإيراني، إذ أُنيّطت بأعضائه مهمة ضمان تطبيقها. وفي السياسة الخارجية، يتمثل الهدف الأول لإيران الملالي في محاربة القيم الغربية والولايات المتحدة الملقبة بـ«الشیطان الأكبر»، التي تجسد هذه القيم في أسمى صورها في نظر طهران. وفي إطار هذه المعركة، كانت إسرائيل هدفاً مضاعفاً لآية الله، بسبب طبيعتها نفسها بوصفها دولة يهودية، وكذلك بسبب قربها الأيديولوجي والعسكري من الولايات المتحدة.

وحرصاً منها على تجنب مواجهة مباشرة مع واشنطن وتل أبيب، المتفوقتين عسكرياً واللتين يمكنهما أيضاً الاعتماد على الورقة الذرية، أنشأت إيران «محور المقاومة» الشهير، عبر تمويل وتسليح وتدريب مقاتلي حركات مختلفة منبثقة من التيار الشيعي، بل السني أيضاً في حالة حماس، تتقاسم معها أجندتها. وتعتمد طهران اليوم على فاعلين إقليميين مختلفين، مثل حزب الله في لبنان، والمتمردين الحوثيين في اليمن، والمليشيات الشيعية العراقية، وحماس في قطاع غزة، رغم التوجه السني لهذه الأخيرة. وستتناول

في مواضع لاحقة الدور الذي كانت تؤديه سوريا بشار الأسد في هذه المنظومة حتى إطاحته، وكذلك دور الميليشيات الشيعية العاملة في العراق.

إسرائيل ضد حماس: حرب السابع من أكتوبر

إذا كانت جماعات أخرى تنشط انطلاقاً من قطاع غزة، فإن حماس، التي كانت تضم قبل الحرب نحو **30,000 مقاتل**، هي بلا منازع أبرزها. وقد كانت «حركة المقاومة الإسلامية» (Harakat al-Muqawama al-Islamiya) في الأصل مجرد امتداد للإخوان المسلمين المصريين في قطاع غزة، وأرادت أن تكون جمعية خيرية، ولم تتحول إلى هيئة سياسية إلا ابتداءً من عام 1987، في سياق اندلاع الانتفاضة الأولى⁴⁵. وتقدم حماس، الداعية إلى إقامة دولة إسلامية وإبادة إسرائيل، نفسها على أنها حركة مقاومة هدفها تحرير فلسطين. وقد جاء تأسيس الشيخ أحمد ياسين لحماس عام **1987** نتيجة خلاف بين الإخوان المسلمين الذين كانوا يقدمون أسلمة قطاع غزة، وأولئك الأعضاء الذين كانوا يرون في القضية الفلسطينية هدفاً ذا أولوية.

ويمكن وصف حماس بأنها حركة تمارس إرهاباً إسلامياً قومياً. فخريطة هجماتها تكشف أن الجماعة لا تنشط خارج إسرائيل والأراضي الفلسطينية. وإذا كانت حماس تجاهر بطبيعتها الإسلامية، فإن تأويلها لبعض النصوص القرآنية يشهد على توجهها القومي. ففي حين يرد مفهوم الجهاد، «القتال المقدس» أو «الحرب المقدسة»، في آيات قرآنية عدة ويخضع لتأويلات متنوعة⁴⁶، تتبنى حماس تصوراً إقليمياً بحتاً له، مستندة إلى الآية التي تأذن لـ «الذين يُقاتلون» و«الذين أخرجوا من ديارهم»⁴⁷ بالدفاع عن أنفسهم. كما يشهد ميثاق حماس التأسيسي، الذي تبنته عام 1988، على المكانة المحورية للقضية الفلسطينية في خطاب الجماعة الإرهابية. وهكذا تذكر المادة 11 من الوثيقة فلسطين بهذه العبارات: «لا يصح التفريط بها أو بجزء منها أو التنازل عنها أو عن جزء منها».

وسيجرّ الهوس الفلسطيني على حماس عداء جماعات إرهابية مثل القاعدة أو داعش، ويُقصيها مما يُعرف بـ «الجهاد العالمي». فتنظيم القاعدة، صاحب الجهاد المعولم الذي يقيم عمله على محاربة «الكفار» و«المرتدين»، يأخذ على حماس إهمالها هذه المسألة، وكذلك مشاركتها في اللعبة «الديمقراطية»، في إشارة إلى فوزها الانتخابي عام 2006. وقد أعلن تنظيم القاعدة أن من يُقتل في سبيل الديمقراطية ودعمًا لجماعة لا تطبق الشريعة وتختار الديمقراطية ليس شهيداً، بل مجرد جثة⁴⁸. كما أن المادة 6 من

⁴⁵ تعني كلمة «الانتفاضة» حرفياً الهبة أو الثورة، وتشير إلى حركتي التمرد الشعبي اللتين واجه فيهما الفلسطينيون الجيش الإسرائيلي من 1987 إلى 1993 ثم من 2000 إلى 2005. وتُسمى الانتفاضة الأولى أيضاً «انتفاضة الحجارة».

⁴⁶ يرى فيه بعضهم جهاداً روحياً، فيما يرى آخرون في مفهوم الجهاد دعوة إلى تطهير الإسلام من المؤمنين السيئين، أو إلى الاستشهاد، أو حتى مصداً لاحتكار الدولة لمحاربة الوجود الغربي.

⁴⁷ سورة الحج، الآيتان 39 و40.

⁴⁸ Foreign Affairs. «Gaza and Global Jihad», ForeignAffairs.com

ميثاق حماس، التي تنص على أنه «في ظل الإسلام يمكن أن يتعايش أتباع الأديان جميعاً في أمن وأمان»، لا تتوافق مع رؤية القاعدة. أما داعش فليست علاقاته بالجماعة الإرهابية الفلسطينية أفضل حالاً، إذ يرى أنه لا ينبغي أن توضع أي أرض فوق الجهاد، ومن ثم يتهم الحركة الفلسطينية بالوقوع في إثم الوثنية.

وتتألف الحركة من مكتب سياسي وجناح مسلح تقوده كتائب عز الدين القسام⁴⁹، التي سيكون لها دور كبير في هجمات السابع من أكتوبر. ويعمل الجناحان باستقلالية شبه تامة. فالمكتب السياسي يتولى نوعاً ما الجانب العلائقي لحماس، سواء مع سكان القطاع أو مع شركائها الدوليين، فيما يؤثر الجناح العسكري التكتم.

وتُعد حركة الجهاد الإسلامي، التي تضم نحو عشرة آلاف عنصر، ثاني أهم جماعة إرهابية في قطاع غزة. وقد تجلّى تشدها في سلسلة من العمليات الانتحارية التي نفذتها في إسرائيل للتعبير عن رفضها اتفاقات أوسلو عام 1993. وخلافاً لحماس، لا تسعى الجهاد الإسلامي إلى أداء دور سياسي في قطاع غزة، وهو ما قد يمثل، على نحو مفارق، مشكلة لحماس. إذ ترفض الجهاد الإسلامي بصورة منهجية أي تفاوض وأي اتفاق هدنة مع إسرائيل، وتشن أحياناً هجمات على الدولة العبرية من دون الرجوع إلى حماس.

ومع ذلك، لم ينقطع الحوار بين التنظيمين، بسبب غياب التنافس السياسي بينهما تحديداً. فالجهاد الإسلامي خرجت هي الأخرى من رحم الإخوان المسلمين، الذين كانت تأخذ عليهم إفراطهم في تقديم الإسلام السياسي على حساب القضية الفلسطينية. وفي الوقت نفسه، تأخذ الجهاد الإسلامي على الحركات القومية الفلسطينية طابعها العلماني. أما حماس، التي يحيل ميثاقها مراراً إلى الدين الإسلامي، فتتجنب من هذه الانتقادات، رغم أن علة وجودها هي في الأساس القضية الفلسطينية. فالإرهاب الذي يمارسه عناصرها أقرب إلى إرهاب إسلامي قومي منه إلى إرهاب إسلامي بالمعنى الدقيق يكون هدفه إقامة دولة إسلامية.

وبعيداً عن هذه الخلافات الأيديولوجية الجوهرية، كان على حماس أن تواجه منافسة محلية جسّدتها السلطة الفلسطينية برئاسة محمود عباس. وقد أقيمت هذه الأخيرة في نهاية المطاف عبر صناديق الاقتراع، وخلال المواجهات التي أعقبت الانتخابات. ففي 25 يناير 2006، حصلت حماس على الأغلبية المطلقة في المجلس التشريعي، ما بين 70 و75 مقعداً من أصل 132، متغلبة على فتح، الحزب السياسي للسلطة الفلسطينية، ما أدى إلى استقالة أحمد قريع، العضو في فتح ورئيس الوزراء، لصالح حماس التي كان عليها، رغم إدراجها على قائمة المنظمات الإرهابية في الولايات المتحدة، تشكيل حكومة جديدة.

⁴⁹ نسبة إلى الرجل الذي قاد الثورة على الوجود البريطاني في ثلاثينيات القرن الماضي.

وسيتولى رئاستها رئيس وزراء من صفوفها، هو إسماعيل هنية. ولم يجر انتقال السلطة من دون عنف، كما تشهد على ذلك حصيلة 320 قتيلاً بين الانتخابات و8 فبراير 2007، تاريخ تشكيل حكومة وحدة وطنية إثر مفاوضات بين الحزبين.

غير أن الهدوء لن يدوم طويلاً، إذ استؤنفت المعارك منذ 10 يونيو. فاغتيال ممثلون وعناصر من المعسكرين، واستهداف منزلاً محمود عباس وإسماعيل هنية بهجمات، وقُتل إمام مقرب من حماس على يد عناصر من فتح. وسيطر مقاتلو حماس على جبالاً وشمال قطاع غزة في أقل من يومين، وطردوا السلطة الفلسطينية من القطاع. فأعلن محمود عباس حالة الطوارئ وحلّ حكومة الوحدة الوطنية. ولن تعترف حماس قط بالحكومة الجديدة التي ستستقر في رام الله، في الضفة الغربية، تاركة القطاع في يد غريماتها. ورغم الخلافات المذهبية، إذ إن حماس سنية فيما النظام الإيراني شيعي، ترى طهران في الجماعة التي تشاطرها كراهية إسرائيل حليفاً وازناً في صراعها عن بُعد ضد العدو الأميركي وحليفه الإقليمي.

وقد دأبت إيران على تقديم دعم مالي لحماس. فغداة هجمات السابع من أكتوبر، وضع الجيش الإسرائيلي يده على وثائق تفيد بأن إيران دفعت أكثر من **230 مليون يورو لحليفها الفلسطيني منذ عام 2014⁵⁰**. كما تزود إيران حماس بكميات من المعدات العسكرية، استُخدم بعضها في السابع من أكتوبر 2023. ففي ذلك اليوم، أطلقت حماس عملياتها «طوفان الأقصى» بإطلاق آلاف الصواريخ على إسرائيل، قبل أن تتسلل إلى أراضيها جواً وبراً وبحراً وترتكب فيها الفظائع المعروفة. وقد فاق الرد الإسرائيلي ما كانت تتوقعه قيادة التنظيم الإرهابي، ومن المرجح جداً أن يكون قاضياً عليه. فالعملية العسكرية الإسرائيلية، التي ترمي إلى تحرير الرهائن الذين لا يزالون محتجزين في القطاع، تهدف أيضاً إلى القضاء على حماس.

وبعد قصف جوي ومدفعي لمواقع الجماعة الإرهابية، دخل الجيش الإسرائيلي قطاع غزة في 27 أكتوبر 2023. وسرعان ما جرت تصفية رئيس شبكة الصواريخ المضادة للدروع في حماس، إبراهيم السحار، ورئيس مديرية الاستخبارات فيها، شادي باهود. وستتبع هذه الانتصارات الأولى للجيش الإسرائيلي خسائر أكبر للتنظيم الإرهابي.

فقد قُتل إسماعيل هنية، رئيس المكتب السياسي لحماس، بضربة إسرائيلية حين كان في طهران لحضور تنصيب الرئيس الإيراني الجديد مسعود بزشكيان. وكان رئيس الوزراء السابق في السلطة الفلسطينية، الذي كان يعيش بعيداً عن غزة متنقلاً بين قطر وتركيا، قد انضم إلى حماس منذ تأسيسها عام 1987،

⁵⁰ <https://www.lopinion.fr/international/plus-de-230-millions-deuros-auraient-ete-verses-par-iran-au-hamas-selon-le-time>

وكان وراء تقارب التنظيم مع إيران. أما مقتل يحيى السنوار، قائد الجناح المسلح لحماس والعقل المدبر لهجمات السابع من أكتوبر، على يد دورية إسرائيلية في تل السلطان قرب رفح، فقد كان له وقع أكبر. وفي يناير 2025، أكدت حماس مقتل محمد الضيف، القائد العسكري للتنظيم، الذي كان قد قُتل في 13 يوليو 2024 بضربة إسرائيلية في جنوب قطاع غزة. وفي الآونة الأخيرة، جرت تصفية محمد السنوار، شقيق يحيى السنوار الذي خلفه على رأس الحركة، بضربة من الجيش الإسرائيلي.

وإلى خسارة كثير من قادتها، تضاف الأعداد الكبيرة جداً من العناصر الذين قضت عليهم القوات الإسرائيلية. والحصول على حصيلة رقمية دقيقة لعدد الإرهابيين القتلى أمر بالغ الصعوبة، لأن الأرقام تصدر عن وزارة الصحة التابعة لحماس. ثم إن هذه الأرقام، وإن عدّتها الأمم المتحدة موثوقة، لا تميّز أبداً بين المقاتلين والمدنيين.

وإذا تبين أن حماس لم تكن تتوقع ردّاً بهذه الشدة من تل أبيب، ولا حرباً بهذا الطول، فإن النية الحقيقية للجماعة الإرهابية تبدو نابعة من حساب سياسي بحث كان من شأنه أن يفضي إلى مثل هذا السيناريو. فحين أطلقت حماس هجمات السابع من أكتوبر، لم يكن بوسعها أن تجهل أن الجيش الإسرائيلي سيدخل القطاع. فالفضائع التي ارتكبتها عناصرها لم يكن لها إلا أن تستتبع ردّاً برياً وحملة قصف سثلق، شأن كل عملية من هذا النوع، أضراراً جانبية تؤدي إلى مقتل كثير من الأبرياء. وهذا هو هدف قادة حماس. فبجعل القطاع مسرحاً لمعارك جديدة واحتلال حتمي لم يحدث منذ عام 2005، دفعت حماس بغزة إلى صدارة القنوات الإخبارية في العالم أجمع. وأرادت توظيف التغطية الإعلامية لإثارة سخط دولي يُفترض أن يتحول إلى ضغط ينتهي إلى الاعتراف بدولة فلسطينية تقودها حماس فعلياً.

ويبدو أن حماس كسبت هذه الحرب الإعلامية، باستراتيجية تنطوي على قدر مخيف من الاستهتار. ففي معادلتها، ليس السكان الفلسطينيون سوى متغير للتعديل. ومع النسيان التدريجي للضحايا المدنيين الإسرائيليين في السابع من أكتوبر، تركّز اهتمام الرأي العام على المدنيين في غزة. والتأثر المشروع الذي تثيره هذه الحصيلة المروعة يقود إلى التغاضي عن حقيقة بالغة الأهمية: فميل حماس إلى استخدام سكانها دروعاً بشرية والتخفي بينهم يعرّض المدنيين للخطر عمداً. فحين تنشر حماس أسلحتها وعناصرها وبنائها في مبانٍ مثل المستشفيات أو المدارس، فإنها تعرّضها للقصف عن سابق قصد.

وإلى جانب تفوق إسرائيل عليها عسكرياً، تواجه حماس احتجاجاً متزايداً من سكان القطاع. فقد خرجت حشود من أهل غزة في مسيرات في مدن فلسطينية عدة، آخذة عليها عجزها عن التوصل إلى

استولوا على وقود ومعدات طبية مخصصة للمدنيين⁵². وهي ممارسة ليست جديدة وفق ما كشفه الجيش الإسرائيلي مؤخراً⁵³، إذ تجعل الجماعة من تحويل المساعدات الإنسانية أحد مواردها الرئيسية.

ويبدو على الأرجح أن حماس قد تجاوزتها شدة الحرب. فهي تدرك أن الرهائن باتوا آخر ورقة تفاوض بين يديها، وتعلم أيضاً أن حرب الاستنزاف هذه ستنتهي حتماً باستنفاد مواردها. وتُظهر الضربات الإسرائيلية على مقر حماس في الدوحة في 9 سبتمبر عزم حكومة نتنياهو على الانتهاء من الحركة الإرهابية، كما تُظهر هشاشة غير مسبوقة لدى هذه الأخيرة. فكون الدولة العبرية لا تتردد في شن هجوم على أرض قطر، وهي بلد تعدّه واشنطن حليفاً، دفع القادة السياسيين لحماس إلى التفكير في مسألة بقائهم هم أنفسهم. وبين فكّي كماشة، ضغط المجتمع الدولي، بما فيه الدول العربية، الذي يدفعها إلى قبول اتفاق السلام الذي اقترحه دونالد ترامب، والحضور المتزايد للجيش الإسرائيلي في القطاع، يبدو أن حماس استوعبت أن قطاع غزة سيخرج من سيطرتها. ومع اقتراب الإفراج عن الرهائن وانتهاء النزاع على ما يبدو، يسعى قادة حماس، الذين لم يعد لديهم أي هامش للمناورة، إلى الحصول على ضمان بالمنفى قبل إلقاء السلاح.

حزب الله في طريقه إلى نزع السلاح

حزب الله جماعة شبه عسكرية وحزب سياسي في آن واحد. ويعود تأسيس الحركة الإسلامية إلى التدخل الإسرائيلي في لبنان عام 1982، وهو ثمرة التقاء النفوذ الإيراني برغبة بعض أعضاء جماعة قائمة من قبل، هي حركة أمل، في العمل المسلح.

وكانت حركة أمل، التي تأسست عام 1974، تدعو إلى المساواة بين جميع المواطنين اللبنانيين أياً كانت طوائفهم، وتسعى خصوصاً إلى سد الفوارق الاقتصادية التي كانت تعاني منها الأقلية الشيعية في بلد الأرز. وقد انخرطت حركة أمل في المعارك بين لبنان وإسرائيل خلال «عملية الليطاني». فهذه العملية، التي انطلقت في 14 مارس 1978، اتخذت شكل توغل للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان لضرب عناصر منظمة التحرير الفلسطينية الذين كانوا يستهدفون شمال الدولة العبرية. وفي عام 1982، حاصرت القوات الإسرائيلية في عملية «سلامة الجليل» بيروت واستولت عليها، ثم انسحبت منها عام 1985. وخلال هذا النزاع، أخذ جزء من عناصر حركة أمل على قيادتها قبولها التفاوض مع الولايات المتحدة وإسرائيل، فقرروا تأسيس «أمل الإسلامية». وسيدعم النظام الإيراني هذا الفرع ليصبح أهم

<https://www.telegraph.co.uk/world-news/2025/03/30/hamas-beat-protester-death-oday-al-rabbay-gaza-doorstep/>

<https://fr.timesofisrael.com/lunrwa-declare-que-le-hamas-lui-a-vole-des-fournitures-avant-de-se-retracter/>⁵²

<https://www.i24news.tv/fr/actu/international/moyen-orient/artc-tsahal-revele-comment-le-hamas-detourne-l-aide-humanitaire-a-gaza>⁵³

الميليشيات الشيعية في البلاد، قبل أن يتخذ اسم حزب الله ويستفيد من الانسحاب الإسرائيلي في مايو 2000 ليسيّطر على جنوب لبنان.

وإذا كان حزب الله وحركة أمل اليوم عضوين في التحالف نفسه في البرلمان اللبناني، أي تحالف 8 آذار، فإن علاقاتهما شابتها توترات كثيرة، وقد تواجه الحزبان خصوصاً في «حرب الإخوة». واندلع هذا النزاع بعد أن خطف حزب الله عقيداً أميركياً كان قد حضر للتو اجتماعاً مع قيادي بارز في حركة أمل. فقد عُدّ الخطف إهانة، وأفضى إلى نزاع استمر من فبراير 1988 إلى يناير 1989، ولم يتوقف إلا بإبرام هدنة يسهّرها التدخل السوري. وكان حزب الله، الذي يُصنّف منظمة إرهابية في الغرب وكذلك من قبل الجامعة العربية، يستهدف عند تأسيسه إسرائيل والقوات الأميركية في المقام الأول، وكانت التفجيرات أسلوب عمله الرئيسي.

ومنذ اليوم التالي لهجمات السابع من أكتوبر، أطلقت الحركة الشيعية اللبنانية صواريخ على إسرائيل التي ردت بغارات جوية وقصف مدفعي استهدف الميليشيا الشيعية. واستمر تبادل إطلاق النار حتى 23 سبتمبر 2024، حين شنت إسرائيل حملة قصف واسعة أعقبها اجتياح بري للبنان في 30 سبتمبر من العام نفسه. وخلال هذا القصف، استهدفت إسرائيل أكثر من 1300 هدف لحزب الله، في رغبة مزدوجة في قطع رأس الحركة وإضعاف ترسانتها العسكرية في آن معاً. وسيُعلن وقف لإطلاق النار في 27 نوفمبر 2024.

وخلال هذه المواجهات، تلقى حزب الله ضربات قاسية من الجيش الإسرائيلي. فالحزب الذي كان يضم نحو 50,000 مقاتل عند بدء الأعمال العدائية، يُرَجَّح أنه خسر ما بين 2500 و4000 منهم في هذا النزاع الذي استمر أكثر من عام. لكن أشد ما أصاب التنظيم كان على مستوى هيكله القيادي. ففي 27 سبتمبر 2024، قُتل حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله منذ 1992، في قصف إسرائيلي. وبعد أيام قليلة، جرت تصفية خليفته المحتمل، هاشم صفي الدين، بضربة أخرى من الجيش الإسرائيلي. وكانت الحركة الشيعية، وقد فقدت قمة هرمها القيادي، قد تلقت ضربة ثقيلة العواقب على الصعيدين البشري ومن حيث السمعة في هجوم أجهزة النداء (البيجر).

وفي 17 سبتمبر 2024، وقعت سلسلة انفجارات لأجهزة نداء في لبنان. وكانت هذه الأجهزة، التي يفضلها عناصر التنظيم اللبناني وسيلةً للتواصل لما توفره من تكتم، قد فُحِّت مسبقاً على يد الموساد. وأسفرت موجة الانفجارات، التي فُجِّرت عن بُعد، عن مقتل 12 شخصاً وإصابة أكثر من 2800. وفي اليوم التالي، انفجرت هذه المرة أجهزة اتصال لاسلكي، ما أدى إلى مقتل 20 شخصاً وإصابة 450. وإلى جانب الحصيلة البشرية المرتفعة، باغتت عملية التخريب هذه التي نفذتها الأجهزة الإسرائيلية حزب الله،

فبدت هزيمة مهينة للمليشيا الشيعية اللبنانية. وفي الآونة الأخيرة، صوّت إسرائيل قيادياً بارزاً آخر في حزب الله هو خضر سعيد هاشم، الذي قُدّم على أنه أحد قادة قوة الرضوان. وكان سقوط نظام بشار الأسد، الحليف التاريخي لحزب الله، في 8 ديسمبر 2024 نكسة إضافية للتنظيم الإرهابي الذي خسر حينها طريق إمداد مفضلاً لدى إيران لإيصال الأسلحة والمعدات إليه.

وقد بات حزب الله، الذي هزّته مواجهته مع إسرائيل بشدة، في طريق مسدود. فالحركة اللبنانية، وقد حُرمت من معظم كوادرها، في موقع ضعف. ويطالب الرئيس اللبناني الجديد جوزيف عون بنزع سلاحها لصالح الدولة، بحيث لا تحتفظ إلا بصلاحياتها بوصفها حزباً سياسياً. وهي مبادرة تحظى بدعم الولايات المتحدة ودول الخليج. وتبدو تصريحات نعيم قاسم، الأمين العام الجديد للحزب، حتى الآن ذاهبة في هذا الاتجاه. غير أن تساؤلات تبقى قائمة حول صدقها، لا سيما أن الجزء الأكبر من الصواريخ الباليستية التي يملكها التنظيم لم يُدمّر خلال المواجهة مع إسرائيل، وأن إيران لم تتخلّ عن دعم هذا العضو المهم في «محور المقاومة».

الحوثيون، الوكيل الذي يهزّ البحر الأحمر

تعود أصول الحركة الحوثية إلى تسعينيات القرن الماضي، حين قاد الزعيم الديني حسين الحوثي تمرداً على الرئيس اليمني علي عبد الله صالح انطلاقاً من محافظة صعدة في شمال البلاد، حيث كان هؤلاء المتمرّدون آنذاك مجرد فصائل مسلحة. وفي بلد ذي غالبية سنية، يشكل الحوثيون⁵⁴ استثناءً، إذ يدينون بمذهب منبثق من التشيع هو الزيدية. وهذا التيار الديني، الذي لا يعترف إلا بالأئمة الخمسة الأوائل، ومن ثم يُعد أكثر تضيقاً من التشيع الذي انبثق منه، يمثل 15% من اليمنيين البالغ عددهم 40 مليوناً. ورؤيتهم للإسلام متشددة، إذ يرى أتباع هذه الحركة خصوصاً أن الشريعة⁵⁵ يجب أن تسود على كامل التراب الوطني. ولأن الحوثيين يرون أن ثقافتهم الزيدية تجعل منهم نخبة داخل الإسلام، فهم لا يترددون في إبداء القسوة تجاه من يختلفون عنهم في المذهب، بمن فيهم مواطنوهم. وبعد توحيد اليمن عام 1990، سيعيش الحوثيون الهيمنة السنية على أنها ظلم فادح، وسيغدّون ضغينة ما زالت قائمة حتى اليوم تجاه السعودية، التي يرون أنها المسؤولة عن نشر المذهب السني في الأراضي اليمنية.

وكان الحوثيون أصلاً في موقع المعارضة للسلطة من الناحية الدينية، فرأوا في تحالف الرئيس صالح مع الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب خيانة. واندلعت حروب عدة بين المتمردين والسلطة في العقد الأول من القرن الحالي، ولا سيما «حرب صعدة» عام 2004 التي قُتل فيها زعيم الحوثيين حسين الحوثي. وسيستفيد التنظيم من موجة الربيع العربي ليكتسب بعداً جديداً ويزداد تشدداً. فبعد إطاحة

⁵⁴ يُعرفون أيضاً باسم «أنصار الله» (وردت في الأصل بصيغة «Anser Allah»).

⁵⁵ المقصود بها القانون الإسلامي.

الرئيس صالح وتولي حكومة انتقالية السلطة، عقد المتمرّدون حلفاً مع علي عبد الله صالح. وقد عزّز هذا الأخير، الراغب في استعادة السلطة، صفوف الحوثيين بجنود الحرس الجمهوري. وفي عام 2014، زحفوا على صنعاء وصمدوا أمام القصف الذي شنته السعودية والإمارات العربية المتحدة، فاستولوا على العاصمة. غير أن هذا التحالف لن يدوم، إذ لجأ الرئيس السابق صالح إلى الرياض قبل أن يغتاله الحوثيون عام 2017 لمحاولته عقد تحالف مع الحكومة السعودية. ويُقدّر أن المتمرّدين، الذين ترسّخوا في السلطة نهائياً وسيسيطرون على شمال غرب البلاد مع معازل مهمة مثل صنعاء أو ميناء الحديدة المطل على البحر الأحمر، يسيطرون على 60% من سكان اليمن.

وكان الحوثيون، بوصفهم أعضاء في «محور المقاومة»، قد حظوا بدعم حزب الله وإيران في حملتهم عام 2014 التي وضعتهم في مواجهة القوى السنية الإقليمية. ويتلقى الحوثيون، الذين باتوا على رأس خزان بشري مثير للإعجاب يُقدّر بما لا يقل عن 100,000 مقاتل⁵⁶، الأسلحة من حلفائهم الشيعة، وفي مقدمتهم طهران. وإلى جانب العقيدة الشيعية وكرهية الولايات المتحدة، يتقاسم الحوثيون مع إيران كراهية إسرائيل. ويشهد على ذلك شعارهم: «الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام». ثم إن المتمرّدين، منذ سيطرتهم على منطقة شمال غرب البلاد، يملكون منفذاً مباشراً إلى البحر الأحمر، وهو موقع استراتيجي بالغ الأهمية تعتزم إيران استغلاله عبرهم.

ومنذ اندلاع الحرب في قطاع غزة، لا يكفّ الحوثيون عن استهداف إسرائيل برشقات من الصواريخ والمسيّرات. وإذا كانت فعالية هذه الهجمات على الأراضي الإسرائيلية تبقى محدودة بفضل أداء القبة الحديدية التي تحمي الدولة العبرية، فإن التهديد الحوثي يبدو أشد خطراً بكثير في البحر الأحمر. فبينما يمر عبر مياهه 12% من التجارة البحرية⁵⁷، بات البحر الأحمر مسرحاً لهجمات كثيرة يشنها المتمرّدون على السفن التي ترفع أعلاماً غربية. ولعرقلة الملاحة، يستخدم المتمرّدون خصوصاً مسيّرات «شاهد-136» الإيرانية الصنع التي يبلغ مداها 2000 كيلومتر. كما يعتمدون إلى الاستيلاء على بعض السفن، على غرار «غالاكسي ليدر». فهذه السفينة البريطانية كان الإرهابيون الحوثيون قد اقتحموها في نوفمبر 2023، ولم يُفرج عنها إلا في يناير 2025. ويؤدي تدهور البيئة الأمنية تلقائياً إلى ارتفاع كلفة نقل الشحنات القادمة من الصين باتجاه الغرب. وتتضرر الدول العربية أيضاً من تجاوزات الحوثيين. فقد أشار الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي إلى أنها تُلحق بمصر خسائر في الإيرادات تقارب 800 مليون

<https://www.longwarjournal.org/archives/2025/04/us-targets-houthi-military-and-political-leaders-in-latest-campaign.ph> ⁵⁶

<https://www.europe1.fr/economie/attaques-des-houthis-en-mer-rouge-traffic-maritime-retards-prix-les-consequences-s> ⁵⁷
ur-leconomie-mondiale-4225605

دولار شهرياً⁵⁸، وهو ما يكفي لتقويض هدف تحقيق 13 مليار دولار من الإيرادات المرتبطة بأنشطة قناة السويس في السنة المالية 2025.

ثم استهدفت إدارة ترامب الثانية الحوثيين، فشنت عمليات قصف واسعة النطاق على مواقعهم في مارس 2025. وأعلن الرئيس الأميركي حينها أن الحوثيين سـ«يُبادون بالكامل». وفي أواخر أبريل، أعلنت الولايات المتحدة أنها ضربت أكثر من ألف هدف حوثي. ومن بينها كانت الضربة على ميناء رأس عيسى ليل 17 إلى 18 أبريل شديدة الفتك، إذ أوقعت 80 قتيلاً. وأمام هذه الخسائر الكبيرة، أبرم المتمردون الحوثيون وقفاً لإطلاق النار مع واشنطن. غير أن هذا الاتفاق الثنائي البحث، الذي أعلنته سلطنة عُمان، لا ينهي الأعمال العدائية بين الجماعة اليمنية وإسرائيل. فما زالت سفن الدولة العبرية مستهدفة في البحر الأحمر. ومؤخراً، اعترضت إسرائيل صاروخاً أطلق باتجاه القدس. كما استُهدف مطار بن غوريون، القريب من تل أبيب، بصاروخ باليستي. فردّت إسرائيل بقصف مطار صنعاء الواقع في قبضة الإرهابيين الحوثيين، قبل أن يهدد هؤلاء باستهداف رحلات مدنية.

ولما كانت الولايات المتحدة، التي باتت تفضل نهج الصفقات في العلاقات الدولية، لا تبدو مستعدة للتدخل لدى الحوثيين كي يكفّوا عن استهداف إسرائيل، فقد صار البحث عن بلد قادر على ممارسة أي ضغط على الجماعة الإرهابية أمراً حيوياً. وبما أن الحوثيين يشكلون آخر وكيل إيراني ما زال يمثل تهديداً ملموساً على الصعيد الدولي، فلا ينبغي توقع أن تدعوهم طهران إلى وقف الأعمال العدائية. غير أن هذه الفرضية لا يمكن استبعادها كلياً، إذ قد تتحقق دائماً في إطار اتفاق نووي بين واشنطن وطهران، وهو موضوع شائك سنتناوله أدناه. وأمام هذه الشكوك، قد يكون اللجوء إلى البلدان التي لها مصلحة تجارية كبيرة في البحر الأحمر، مثل مصر أو الصين، بديلاً جديراً بالاهتمام.

«حرب الظل»: إيران في موقع غير مواتٍ

لم تكن العلاقات بين إيران وإسرائيل دائماً مرادفة للعداء. فقبل قيام الجمهورية الإسلامية، كان البلدان معتادين على التعاون في مسائل شتى. ورغم أن إيران عارضت في البداية قيام الدولة العبرية، فإنها كانت ثاني دولة ذات غالبية مسلمة، بعد تركيا، تعترف بوجودها عام 1950. وكانت ثمة روابط تجارية ودبلوماسية بين البلدين، وإن كانت غير رسمية. فمنذ عام 1950، كان يهود قادمون من العراق يعبرون الأراضي الإيرانية للوصول إلى الدولة العبرية الجديدة. وكانت إيران آنذاك، فضلاً عن ذلك، من أبرز مزودي إسرائيل بالنفط، التي كانت تساعد في المقابل على تطوير قدراتها في مجال الصواريخ الباليستية المتوسطة المدى. وكانت هذه الروابط بين البلدين بالغة الأهمية حين تعلق الأمر بلجم التهديد

⁵⁸ <https://www.agenceecofin.com/actualites/1803-126769-canal-de-suez-legypte-perd-800-millions-par-mois-en-raison-d-es-tensions-president>

العراقي ابتداءً من خمسينيات القرن الماضي. فالعراق، الذي كان يحكمه القومي عبد الكريم قاسم، كان يشكل تهديداً للبلدين. وكانت الشرطة السياسية الإيرانية، «السافاك»، التي أنشئت بمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (CIA) والموساد، تتعاون مع الأجهزة الإسرائيلية لدعم المتمردين الأكراد العراقيين في صراعهم ضد نظام قاسم.

وكانت الدولة الفارسية، التي حكمها الشاه محمد رضا بهلوي بدءاً من عام 1941، حليفاً إقليمياً مهماً للولايات المتحدة آنذاك. ومن هذا المنطلق، كان التقارب بين طهران وتل أبيب يستجيب أيضاً لمصالح جيوسياسية. غير أن هذه العلاقات غير الرسمية والودية ستقلب رأساً على عقب عام 1979 مع سقوط الشاه ووصول آية الله الخميني إلى السلطة. فقد أراد هذا الأخير وضع حد للتعاون بين الإيرانيين والمسؤولين الغربيين، وجعل البلاد جمهورية إسلامية تكون مركزاً لوحدة إسلامية إقليمية. ففي رؤية الملالي، تمثل الولايات المتحدة، بوصفها تجسيدا لكل عيوب الغرب، العدو الأيديولوجي المطلق. وأصبحت محاربة من يلقبه القادة الجدد بـ«الشیطان الأكبر» أولوية في السياسة الخارجية، شأنها شأن محاربة إسرائيل التي يعدّها النظام الإيراني امتداداً أميركياً في الشرق الأوسط، والتي ورثت بدورها لقب «الشیطان الأصغر». ولإدراك قادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية أن التشيع أقلية واسعة الفارق أمام الإسلام السني، سيبحثون عن وسيلة لتوحيد المسلمين كي يصبحوا حملة لوائهم.

ومنذ قيام النظام الجديد، تراجعت طهران عن اعترافها بإسرائيل وقطعت كل اتصال دبلوماسي مع قادتها. وعقد آية الله شراكة مع منظمة التحرير الفلسطينية، واستقبل على الفور ياسر عرفات في زيارة دبلوماسية، قبل أن تُمنح المنظمة المقر السابق للسفارة الإسرائيلية في طهران لتقيم فيه ممثليها. وستصبح القضية الفلسطينية العنصر الجامع الذي كانت طهران بحاجة إليه لإطلاق حركة واسعة معادية للغرب. فالملالي، الذين قدّموا الولايات المتحدة على أنها آفة غربية إمبريالية، وجدوا في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني فرصة لتنصيب أنفسهم مدافعين عن المستضعفين على المستوى الإقليمي. وقدّمت تل أبيب حينها على أنها الذراع المسلحة للمستعمر الغربي في الشرق الأوسط. وفي تلك الحقبة، وُضعت أسس «محور المقاومة». ففي مطلع الثمانينيات، وفيما كانت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين تهاجم إسرائيل انطلاقاً من قطاع غزة، استغلت إيران الخلافات بين حركة أمل وبعض أعضائها للمساعدة في تأسيس حزب الله اللبناني.

غير أنه لا بد من التوضيح أن الثمانينيات كانت أيضاً مسرحاً للصراع بين العراق وإيران. فصدام حسين، الذي كان على رأس العراق ذي الأعداد الكبيرة من الشيعة، لم يكن يريد أن تشهد بغداد ثورة إسلامية مماثلة لتلك التي أطاحت محمد رضا بهلوي. ومنذ سبتمبر 1980، اجتاحت القوات العراقية إيران. ووقف الغرب رسمياً إلى جانب صدام حسين. لكن الولايات المتحدة ستزود إيران بالأسلحة، بمساعدة إسرائيل

التي ستؤدي دور الوسيط لدى طهران. وستكشف هذه المناورات، فيُتحدث عن فضيحة «إيران غيت»، إذ اتُّهمت إدارة ريغان بانتهاك الحظر المفروض على إيران عبر صفقات الأسلحة هذه، التي استُخدمت عائداتها لتمويل «الكونترا»، المتمردين النيكاراغويين، في صراعهم ضد الحكومة الثورية لجبهة التحرير الوطني الساندينية. وفي 20 أغسطس 1988، وضع قرار للأمم المتحدة حداً للحرب بين العراق وإيران، فتمكن الملاي حينها من التركيز على الهدف الإسرائيلي.

وفي هذا السياق ظهرت «حرب الظل». فطهران، لإدراكها أنها عاجزة عن مواجهة إسرائيل مباشرة، ومعها حليفها الأميركي والقوى الإقليمية التي قد تميل إلى مساندتهما، ستلجأ إلى وكلائها للإضرار بالمصالح الأمنية والتجارية للدولة العبرية. وعلى الهجمات الكثيرة التي شنّها الوكلاء الإيرانيون، ترد إسرائيل باغتيالات محددة الأهداف مستفيدة من قدرات الموساد. وسرعان ما تستهدف هذه التصفيات العلماء العاملين في المشاريع النووية الإيرانية، إذ أرادت إسرائيل بأي ثمن منع الملاي من امتلاك السلاح الذري. وهكذا اغتيل العالم محسن فخري زاده، المسؤول عن البرنامج النووي الإيراني، الذي كانت الاستخبارات الإسرائيلية تتعقبه منذ 2007، في نوفمبر 2020 بواسطة رشاش يُتحكَّم فيه عن بُعد.

وقد شكّل اندلاع الحرب في غزة إثر الهجمات الإرهابية التي ارتكبتها حماس في السابع من أكتوبر 2023 تصعيداً في التوترات بين إيران وإسرائيل. بل إن هذا النزاع شهد خروج العدوين عن مبدأ الهجمات الخفية أو غير المباشرة. ففي 1 أبريل 2024، استهدفت القنصلية الإيرانية في دمشق، بسوريا، بضربة نُسبت إلى إسرائيل. وأسفر الهجوم عن مقتل 13 شخصاً، بينهم جنرالان من فيلق القدس، وحدة النخبة في الذراع المسلحة للثورة الإسلامية. وأمام تمرين صعب في التوازن الجيوسياسي، ستبحث طهران عن وسيلة للرد مع تفادي أي تصعيد إضافي. ففي ليل 13 إلى 14 أبريل الماضي، أطلقت إيران 185 مسيرة و110 صواريخ أرض-أرض و36 صاروخ كروز على الأراضي الإسرائيلية، انطلاقاً من أراضيها وكذلك من اليمن والعراق. وفي هذا الهجوم، كان نظام الملاي يستهدف الدولة العبرية مباشرة للمرة الأولى في تاريخه، ما أضفى على هذه الحملة بعداً رمزياً مهماً. غير أن هذا البعد ينبغي أن يُنسب في ضوء ضعف فعاليتها. فبعد الهجوم مباشرة، أعلن الجيش الإسرائيلي أنه اعترض الغالبية العظمى من المقذوفات الإيرانية بمساعدة حلفائه مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والأردن، وسيتحدث عن نسبة اعتراض بلغت 99%. كما شاركت فرنسا في الدفاع عن إسرائيل باعتراض مسيرات كانت تحلق فوق الأردن والعراق. وإذا كان الهجوم قد أصاب مع ذلك عدداً من المدنيين، فإنه يبقى نجاحاً تكنولوجياً لتل أبيب التي استغلته لإظهار تفوق معداتها على معدات طهران. وفي 19 أبريل، ردت إسرائيل بدورها باستهداف منشآت في منطقة أصفهان، وسط الدولة الفارسية. ودُمّرت خصوصاً بطارية دفاع جوي. وستفضّل طهران التهوين من حجم الأضرار ولن ترد.

وحين أفضت المواجهة بين حزب الله وإسرائيل إلى هجوم بري للجيش الإسرائيلي، أطلقت طهران 200 صاروخ، بعضها فرط صوتي، في إطار عملياتها «الوعد الصادق 2». وهذه الرشقات، التي كانت تهدف أيضاً إلى الثأر لمقتل حسن نصر الله، اعترضتها مرة أخرى القبة الحديدية وحلفاء إسرائيل. وسترد الدولة العبرية على هذا الهجوم في 26 أكتوبر باستهداف منشآت عسكرية إيرانية، وتحديداً مواقع لتصنيع الصواريخ وبطاريات صواريخ.

إن تطور المواجهة بين إسرائيل وإيران، على خلفية حرب غزة، يميل إلى حد بعيد لصالح إسرائيل، ولا سيما منذ الحملة الجوية التي أطلقتها تل أبيب على إيران في 13 يونيو الماضي.

فالهجمات التي شنها الجيش الإسرائيلي في إطار عملية «الأسد الصاعد» (Rising Lion) تمثل نجاحاً عسكرياً لا جدال فيه. فباستهداف المنشآت النووية للنظام الإيراني ومواقع تصنيع الصواريخ، أراد الجيش الإسرائيلي القضاء على البرنامج النووي للملاي. كما هاجمت القوات الإسرائيلية الكوادر البشرية التي تؤدي دوراً رئيسياً في الأجندة النووية الفارسية، فقتلت علماء كثيرين، من بينهم فريدون عباسي، الرئيس السابق لمنظمة الطاقة الذرية الإيرانية، ومحمد مهدي طهرانجي، رئيس جامعة آزاد الإسلامية. كما استهدف الجيش الإسرائيلي شخصيات عسكرية وسياسية من الصف الأول، منها حسين سلامي، قائد الحرس الثوري الإسلامي، وأمير علي حاجي زاده، قائد القوة الجوفضائية في الحرس الثوري، وعلي شادمان، المستشار المقرب من آية الله علي خامنئي⁵⁹.

أما الرد الإيراني، الذي تمثل أساساً في إطلاق صواريخ باليستية باتجاه الدولة العبرية، فقد نجح في إحداث أضرار كبيرة رغم فعالية القبة الحديدية الإسرائيلية. غير أن الوقت لا يعمل لصالح طهران، التي تراجعت حدة هجماتها بسبب الضعف الكبير الذي أصاب قدراتها العسكرية. وتطرح تداعيات هذه الحملة، التي يصفها بنيامين نتنياهو بالوقائية، تساؤلات، وهي تتوقف أساساً على فاعلين اثنين: النظام الإيراني أولاً، لكن أيضاً وقبل كل شيء دونالد ترامب.

وكان من المستبعد جداً أن تتجاوب طهران مع مطالبة الرئيس الأميركي السابع والأربعين لها بـ«استسلام غير مشروط». فبالنسبة إلى نظام وقوده الرئيسي أيديولوجي، فإن الانحناء أمام عدوه اللدود، الذي يلقبه بـ«الشیطان الأكبر»، يعني التخلي عن علة وجوده والتنكر لعقيدته في آن واحد، وهو موقف ستعده السلطات الإيرانية بلا شك غير مقبول. ثم إن استسلام الملاي سيكون إقراراً بالضعف أمام شعب بعيد كل البعد عن تأييد قضية الجمهورية الإسلامية، وقد يثير انتفاضة تعني نهاية النظام.

⁵⁹ https://www.bfmtv.com/international/moyen-orient/israel/infographies-iran-israel-sites-cibles-hauts-grades-et-civils-tue-s-comment-en-sept-jours-les-deux-pays-ont-basculé-dans-la-guerre_GN-202506200049.html

ومع أن ذلك لا يروق للجناح المتشدد في تيار «ماغا»، ومع أن دونالد ترامب يجعل من غلبة عقيدة «أميركا أولاً» على مختلف جوانب السياسة الأميركية، ولا سيما السياسة الخارجية، سمة مميزة لرئاسته، فإن المسألة النووية الإيرانية تنطوي على عواقب يبدو أنها تفرض اللجوء إلى حل هجومي. فرغم أداء الهجوم الإسرائيلي، لا تملك سوى الولايات المتحدة المعدات العسكرية القادرة على تدمير موقع فوردو النووي. وهذا الموقع ثاني أكبر منشأة نووية لدى النظام الإيراني. ويقع قرب مدينة قم، وهو مدفون على عمق 80 أو 90 متراً، ما يجعله خارج متناول الجيش الإسرائيلي. وإلى جانب عملية برية، كان الاحتمال الوحيد الآخر أن تستخدم الولايات المتحدة قنبلة GBU-57 لمحاولة تدمير موقع فوردو.

وأمام هذه المعضلة، اختار دونالد ترامب في النهاية حلاً هجوماً قد يضع حداً نهائياً لسياسة التهذئة التي انتهجتها على التوالي إدارتا أوباما وبايدن. فبعد أن ترك المراقبين في حيرة بشأن تدخل أميركي محتمل، استهدف ساكن البيت الأبيض المواقع النووية الإيرانية الرئيسية الثلاثة المعروفة، وهي نطنز وفوردو وأصفهان، في إطار عملية «مطرقة منتصف الليل» (Midnight Hammer) التي انطلقت يوم الأحد 22 يونيو الماضي. وفي ليل الجمعة إلى السبت، كان الأميركيون قد حرصوا مسبقاً على التمويه بإقلاع مجموعة من القاذفات B-2، وهي الطائرة الوحيدة القادرة على إلقاء قنابل GBU-57 أو «خارقة التحصينات» (bunker buster)، باتجاه المحيط الهادئ كي لا تثير شكوك الإيرانيين. وتتميز قنبلة GBU-57 بأنها لا تنفجر عند ارتطامها بالأرض، بل تخترق السطح لتصيب أهدافاً على عمق يصل إلى 60 متراً. وهي ميزة لا يستهان بها لبلوغ المنشآت النووية الجوفية، لكنها لم تكن كافية لتبديد كل الشكوك في فعالية هذه الاستراتيجية، ولا سيما الشكوك التي أبداها البنتاغون⁶⁰ قبل أيام من العملية، لأن موقع فوردو يقع على عمق يُقدّر بين 80 و90 متراً.

وفي الوقت نفسه، كانت مجموعة من سبع قاذفات B-2 Spirit تقترب من الشرق الأوسط مع الحد الأدنى من الاتصالات، مستفيدة من التزود بالوقود جواً. وقبل أن يدخل سرب القاذفات الأجواء الإيرانية، أطلقت غواصة أميركية نحو عشرين صاروخ كروز من طراز «توماهوك» لإضعاف الدفاعات الجوية للنظام، فيما نفذت مجموعة حماية رمايات تغطية لتحديد التهديدات من نوع أرض-جو. ثم ألقت القاذفات B-2 أربع عشرة قنبلة GBU-57، يزيد وزن كل منها على 13 طناً، على موقعي فوردو ونطنز. أما الموقع الواقع في أصفهان فقد قُصف بصواريخ كروز من طراز «توماهوك». وبعد انتهاء العملية، بدأت مجموعة الهجوم «مطرقة منتصف الليل» رحلة العودة إلى الولايات المتحدة. ووفقاً للجنرال دان كين، قائد العملية، فإن «أول استخدام عملياتي» لقنبلة GBU-57 ألحق «أضراراً جسيمة» بالمواقع النووية الإيرانية⁶¹.

⁶⁰ <https://www.lefigaro.fr/international/conflit-iran-israel-le-pentagone-doute-encore-de-la-capacite-des-bombes-gbu-57-a-detruire-le-site-nucleaire-de-fordo-20250619>

⁶¹ <https://www.rts.ch/info/monde/2025/article/operation-midnight-hammer-les-details-de-l-attaque-americaine-en-iran-28-921676.html>

وباستثناء رد خجول استهدف قاعدة أميركية في قطر، وهي عملية أبلغت بها الأجهزة الإيرانية الولايات المتحدة مسبقاً، لم يرد الملاي. وتم التوصل إلى وقف لإطلاق النار يوم الثلاثاء 24 يونيو، فأنتهى بذلك النزاع الذي سيُعرف من الآن فصاعداً بـ«حرب الأيام الاثني عشر». وقد أسفر عن مقتل أكثر من ألف شخص في إيران، و28 قتيلاً على الأقل في الجانب الإسرائيلي⁶². أما بالنسبة إلى المواقع النووية الإيرانية، فإن الحجم الدقيق للأضرار التي ألحقها الهجوم المشترك لواشنطن وتل أبيب لا يزال مجهولاً. ففي الساعات التي تلت العملية، رأى الرئيس الأميركي أنها شكّلت «نجاحاً عسكرياً باهراً» وأنها دُمّرت «تدميراً كاملاً وشاملاً» المواقع الرئيسية في المنظومة النووية الإيرانية. غير أن الواقع يبدو أكثر تعقيداً لأسباب عدة، منها أن الملاي يُشتبه في أنهم نقلوا جزءاً من مخزون اليورانيوم المخصب قبل الضربات، ومنها المجهول الذي يمثله احتمال وجود مواقع نووية سرية. وفي ضوء هذه الشكوك، يرى البنتاغون أنه، رغم أن المعلومات الاستخباراتية تفيد بأن المواقع المستهدفة «دُمّرت بالكامل»، فإن التهديد النووي الإيراني لن يُرجأ إلا لمدة لا تتجاوز عامين⁶³. وسيكون من الضروري استغلال هذه المهلة لإبعاد إيران نهائياً عن النادي النووي، وهو ما سنتناوله أدناه.

الاضطرابات المرتبطة بالتهديد الإسلامي

إلى جانب تصاعد حرب الظل بين إسرائيل وإيران وتداعيات الحرب في قطاع غزة المستمرة منذ هجمات السابع من أكتوبر، يواجه الشرق الأوسط أيضاً تهديد عودة قوية للإرهاب الإسلامي. فبعد أن طرد تحالف بقيادة الولايات المتحدة تنظيم الدولة الإسلامية (المعروف أيضاً بـ«داعش» أو «ISIS») من سوريا عام 2019، ما أدى إلى سقوط خلافته على الأرض، أوحى هدوء نسبي بأن التهديد الذي يمثله داعش بات تحت السيطرة. غير أن سقوط بشار الأسد في سوريا في 8 ديسمبر 2024، على يد تحالف من المتمردين والإسلاميين بقيادة الجهادي السابق أحمد الشرع، قد يهيئ، بسبب الشكوك الكثيرة التي ينطوي عليها، لعودة «داعش» إلى الواجهة. وفي موازاة ذلك، لا ينبغي إغفال خطر الإسلام السياسي، الذي يتجسد في النفوذ الإقليمي لجماعة الإخوان المسلمين.

في سوريا، نظام جديد وشكوك قائمة

من أبرز تفسيرات الاضطرابات التي تعانيها سوريا منذ إعلان استقلالها عام 1946 صعوبة التعايش بين جماعات دينية عدة. فحين ورثت فرنسا الانتداب على سوريا في أعقاب اتفاقية سايكس بيكو عام 1916، كانت تشارك شريكها البريطانية في الاتفاقية خشيتها من بروز حركة قومية عربية تشكل تهديداً

⁶² <https://www.lefigaro.fr/international/guerre-contre-israel-les-systemes-antiaeriens-endommages-ont-ete-replaces-aff>

irme-l-iran-20250720

⁶³ <https://www.reuters.com/world/middle-east/iranian-nuclear-program-degraded-by-up-two-years-pentagon-says-2025->

لمصالحها الاقتصادية والسياسية على حد سواء. ففي مطلع القرن التاسع عشر، بدأت حركة ثقافية وسياسية تُعرف بـ«النهضة» تزدهر في أوساط النخب الفكرية في مختلف البلدان العربية. وهذه الحركة، النابعة من إرادة تأكيد الثقافة العربية، أفضت إلى تحديد روابط مشتركة، مثل اللغة العربية التي أبرزتها أعمال الفنانين والمثقفين، والدين الإسلامي، وكانت ترمي إلى تأكيد الخصوصية العربية. وبعد تفكك الدولة العثمانية، أراد الغربيون الحيلولة دون تحقق هذا المشروع. ففي سوريا، ستعتمد فرنسا إلى تقسيم البلاد وفق المعيار الديني وإنشاء أربع دول، اثنتان منها للسنة في دمشق وحلب، وواحدة للأقلية العلوية، والأخيرة للطائفة الدرزية.

وقد حمل حزب البعث، الذي تأسس عام 1947، شعلة حركة النهضة. وهو ثمرة تعاون بين مثقفين، أحدهما أرثوذكسي والآخر سني، وهدفه توحيد البلدان العربية عبر الدعوة إلى شكل من الاشتراكية القائمة على العدالة للشعب، وإلى قدر من القومية المستندة إلى الثقافة العربية. ويرى حزب البعث أيضاً في الإسلام وسيلة لتعزيز هذا التوحيد. وفي ختام سلسلة من الانقلابات، استقر حافظ الأسد في السلطة وأمر بصياغة دستور يكرّس حزب البعث «قائداً للدولة والمجتمع»، وقد أقرّ نهائياً في 13 مارس 1973. ودفع حكم حافظ الأسد، العلوي المذهب، الغالبية السنية (نحو 70% من السكان) إلى ملء صفوف المعارضة. ولم يكن المشروع القومي العربي بدوره أولوية للزعيم السوري. وعند وفاته عام 2000، آلت السلطة إلى ابنه بشار الأسد، الذي تمتع في بداياته بصورة الرئيس الإصلاحي.

غير أن هذه الصورة ستتضرر نهائياً بسجن معارضيه السياسيين عام 2005، وخصوصاً بالقمع الدموي للتظاهرات التي جاءت انعكاساً محلياً للربيع العربي. فجنود النظام لم يترددوا في إطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين، ما سيشعل حرباً أهلية منذ عام 2011. وستصدم هذه الحرب الرأي العام الدولي صدمة دائمة حين شن بشار الأسد هجوماً بالسلاح الكيميائي على دمشق في أغسطس 2013. فـ«مجزرة الغوطة» ستوقع أكثر من 1200 ضحية، وسيتعرض 10,000 شخص للتسمم. ولن يتدخل المجتمع الدولي عسكرياً في سوريا، بسبب الرفض الروسي خصوصاً، وكذلك بسبب تردد المملكة المتحدة. واستمرت الحرب الأهلية، وتحول الصراع السياسي بين متمردي الجيش السوري الحر والسلطة إلى نزاع ديني أيضاً يضع مختلف الأقليات السورية في مواجهة إسلاميين يتعاضم نفوذهم. وبعد 13 عاماً من الحرب الأهلية، بات الوضع الإنساني في سوريا كارثياً على نحو خاص. فبينما يعتمد 70% من السكان على المساعدات الإنسانية وقد نزح نصفهم، يُقدّر عدد من قُتلوا خلال هذه الحرب بـ528,500 شخص، بينهم أكثر من 181,939 مدنياً⁶⁴.

64 <https://www.lopinion.fr/international/syrie-la-guerre-civile-a-cause-plus-de-528-500-morts-en-pres-de-quatorze-ans#:~:text=Syrie-,Syrie%3A%20la%20guerre%20civile%20a%20caus%C3%A9%20plus%20de%20528.500,en%20pr%C3%A9s%20de%20quatorze%20ans&text=Plus%20de%20181%20939%20civils,combattants%2C%20selon%20l'Observatoire>

وفي هذا السياق جاء سقوط بشار الأسد. ففي 12 يوماً فقط، أنهى تحالف بقيادة «هيئة تحرير الشام» حكم سلالة الأسد الذي دام 54 عاماً، ودفع بشار الأسد إلى الفرار. وعلى رأس هذا التحالف رجل ذو سيرة ملتبسة وماضٍ جهادي غير بعيد. فأحمد الشرع، المعروف باسمه الحركي أبو محمد الجولاني، التحق بالجهاد وبتنظيم القاعدة عام 2003 لقتال القوات الأميركية في العراق. واعتُقل بعد عامين وسُجن في سجون عدة منها سجن أبو غريب⁶⁵، قبل أن يُطلق سراحه عام 2009. ومع بداية الحرب الأهلية السورية عام 2011، كلف أبو بكر البغدادي، زعيم تنظيم الدولة الإسلامية في العراق آنذاك، الجولاني بتأسيس فرع «النصرة» في سوريا⁶⁶. ثم ألحق هذا الفرع بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق في 9 أبريل 2013 ليصبح جزءاً من تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام. غير أن الجولاني، المقرب من أبي بكر البغدادي، سيغادر داعش في العام نفسه ليُجعل من «النصرة» فرعاً لتنظيم القاعدة. وفي عام 2016، قرر أبو محمد الجولاني الانفصال عن القاعدة، فأصبحت جماعته «هيئة تحرير الشام». وسيتولى الشرع، الذي يعلن أنه نأى بنفسه عن الجهاد العالمي، إدارة منطقة إدلب الواقعة في شمال غرب البلاد اعتباراً من عام 2017. وإدلب، التي اشتهرت في الماضي بسوقها وزراعتها، تؤوي جماعات متمردة وجهادية كثيرة. وتخلّى الجولاني عن اسم «النصرة» لصالح «جبهة فتح الشام» قبل الاندماج في «هيئة تحرير الشام» عام 2017. غير أن من يقدّم نفسه منذ ذلك الحين جهادياً تائباً سيبقى مدرجاً على قائمة الإرهاب الأميركية حتى 20 ديسمبر 2024، وكانت الحكومة الأميركية تعرض حينها 10 ملايين دولار مقابل القبض عليه. وستتيح سيطرة «هيئة تحرير الشام» على هذه المنطقة، البالغة مساحتها 6500 كيلومتر مربع، للشرع أن يختبر ممارسة السلطة. وكانت «حكومة الإنقاذ السورية» ذات توجه محافظ، لكن رئيسها سينفي عنها أي تشدد، بل سيذهب إلى حد الدعوة إلى الانفتاح على الأقليات.

وتحديداً، فإن مصير الأقليات العلوية والمسيحية والدرزية هو ما يقلق المجتمع الدولي منذ أن أصبح أحمد الشرع رئيساً انتقالياً لسوريا. فبينما لا يكف الرئيس الجديد للبلاد عن تكرار رغبته في توحيد سوريا، يجد صعوبة في ضبط العناصر الأكثر تشدداً في تحالفه. فبعد نصف قرن من الحكم العلوي، باتت الغالبية السنية في موقع قوة، وخطر السعي إلى الانتقام كبير. وقد تجسد هذا الخطر في مارس الماضي حين تذرّع إسلاميون بهجمات شنها موالون لعائلة الأسد ليرتكبوا تجاوزات بالغة العنف في مدينة اللاذقية الساحلية، معقل العلويين. وخلال هذه المواجهات، سيُحصي المرصد السوري لحقوق الإنسان 1383 قتيلاً في الجانب العلوي⁶⁷. كما ستطال أعمال العنف الطائفة الدرزية في جرمانا وصحنايا، وهما مدينتان على أطراف دمشق، وكذلك في محافظة السويداء التي يتركز فيها معظم دروز سوريا البالغ عددهم 700,000. وسيُقتل نحو مئة شخص في أعمال العنف هذه التي ستثير قلق الطائفة. وسيندد الزعيم

⁶⁵ <https://www.ft.com/content/8aa819a3-2fc7-4790-be00-b42f21ed1c4e>

⁶⁶ https://www.lemonde.fr/international/visuel/2025/03/15/ahmed-al-charaa-un-strategie-aux-mille-visages_6581292_321

0.html

⁶⁷ https://www.franceinfo.fr/monde/revolte-en-syrie/affrontements-en-syrie-au-moins-1-383-civils-tues-depuis-le-6-mars-selon-un-nouveau-bilan-d-une-ong_7125711.html

الروحي الدرزي حكمت الهجري بما وصفه بحملة إبادة جماعية، بل سيذهب إلى حد المطالبة بتدخل قوات دولية لضمان أمن طائفته.

وبما أن 150,000 درزي يعيشون في شمال إسرائيل، يرى بنيامين نتنياهو في هذه الخلافات فرصة للتقرب من دروز سوريا، ومن ثم تأمين الحدود التي تفصل الدولة العبرية عن سوريا. فإسرائيل لا تثق بالحكومة السورية الجديدة، ولذلك شنت حملة قصف على مخزونات الأسلحة الكيميائية لبشار الأسد في الأيام التي تلت سقوطه. وللتعبير عن دعمها للطائفة الدرزية، نفذت تل أبيب عمليات قصف قرب القصر الرئاسي في دمشق. وشهد الوضع تصعيداً كبيراً اعتباراً من 13 يوليو الماضي، حين اندلعت مواجهات في مدينة السويداء بين الدروز وعشائر بدوية إثر خطف هذه الأخيرة تاجراً درزياً. فانهازت القوات الحكومية التي أرسلتها دمشق إلى جانب البدو، واتّهمت خصوصاً بإعدام مدنيين دروز ميدانياً. وتدخلت إسرائيل مجدداً بقصف القوات السورية، وكذلك بشن حملة غارات على أهداف عسكرية حكومية في دمشق، في محيط القصر الرئاسي.

وأعلن في نهاية المطاف وقف لإطلاق النار في 19 يوليو بين الدروز والبدو، وانسحبت القوات السورية في هذه المناسبة من مدينة السويداء. وتشير الحصيلة المؤقتة التي أعلنها المرصد السوري لحقوق الإنسان إلى سقوط 1311 قتيلاً منذ 13 يوليو، غالبيتهم من الدروز، بينهم 194 أُعدموا ميدانياً على يد عناصر من القوات التابعة لوزارة الدفاع والداخلية. ويضاف إلى هذه الحصيلة 128,000 نازح أحصتهم المنظمة الدولية للهجرة. كما أعلنت الحكومة السورية أنها تمكنت من نزع فتيل الأزمة بإجلاء عائلات البدو والعشائر الموجودة حالياً في مدينة السويداء⁶⁸. وفي الوقت نفسه، أعلن الرئيس السوري الانتقالي أنه قرر إسناد حفظ النظام في المدينة إلى الدروز، موضحاً: «قرّرنا تكليف بعض الفصائل المحلية ومشايخ العقل مسؤولية حفظ الأمن في السويداء»⁶⁹. وأوضح أحمد الشرع أنه اختار الانسحاب لتجنب الانزلاق إلى «الحرب المفتوحة مع الكيان الإسرائيلي على حساب أهلنا الدروز وأمنهم» وعلى حساب استقرار سوريا، ولتقديم المصلحة الوطنية.

وتشكل هذه المواجهات الطائفية بالفعل تحدياً كبيراً للشرع، الذي يرى مشروعه لتوحيد سوريا مهدداً بشدة. فرغبة منه في منع بعض الأقليات، كالدروز والأكراد، من الانفصال، كان رجل دمشق القوي الجديد قد أعلن، بعيد وصوله إلى السلطة، عزمه على توحيد سوريا، وقرر خصوصاً أن جميع الجماعات المسلحة في البلاد يجب أن تنضم إلى القوات الحكومية تحت إشراف وزارة الدفاع. وحتى الآن، ما

⁶⁸ https://www.lemonde.fr/international/article/2025/07/27/les-bedouins-du-sud-syrien-les-autres-victimes-de-la-bataille-d-e-souweida_6624533_3210.html

⁶⁹ <https://www.lefigaro.fr/international/syrie-ahmed-al-charaa-transfere-le-maintien-de-la-securite-a-souweida-aux-druzes-plus-de-350-morts-depuis-dimanche-20250717#retrait-des-troupes-syriennes-de-souweida>

زالت الميليشيات الدرزية منقسمة حول الرد الواجب، وترفض تسليم أسلحتها الخفيفة إلى الحكومة، على خلفية انعدام الثقة في قدرة الحكومة على حمايتها، وكذلك في إرادتها ضبط عناصرها الأكثر تشدداً، مثل أولئك الذين انحازوا إلى العشائر البدوية. أما الأكراد فقد وقّعوا اتفاقاً منفصلاً في مارس الماضي للانضمام إلى القوات الحكومية، لكن الواقع الميداني يشير على ما يبدو إلى أن مختلف الميليشيات الكردية ما زالت تجنّد مقاتلين جدداً وتسلّحهم. وفي بلد متعدد الطوائف حافل بتاريخه بالمظالم والأحقاد الطائفية، يبدو مشروع التوحيد والمركزية هذا سابقاً لأوانه على أقل تقدير. ولا يُستبعد أن تتجه سوريا بالأحرى نحو تنظيم من النوع الفيدرالي يكفل للأقليات التي تطالب بذلك القدرة على ضمان أمنها بنفسها، مع البقاء ضمن إطار إداري مرتبط بدمشق. وسيكون تطور هذه المسألة حاسماً بالنسبة إلى صورة السلطات السورية الجديدة الساعية إلى الشرعية على الساحة الدولية، وكذلك بسبب أثرها المحتمل في مسألة تطبيع العلاقات بين دمشق وتل أبيب، التي سنتناولها أدناه.

الإخوان المسلمون، التهديد العابر للحدود للإسلام السياسي

تُعد جماعة الإخوان المسلمين اليوم من أقوى الجماعات الإسلامية في العالم. ويعود تأسيسها إلى مرحلة انهيار الدولة العثمانية، وكان الهدف منه مقاومة الوجود البريطاني في مصر، وكذلك تدارك افتقار العالم العربي إلى الوحدة بجعل الإسلام قيمة مشتركة. وخلافاً للقومية العربية الكلاسيكية التي تمزج بين القومية والاشتراكية ولا ترى في الإسلام سوى رافد ثقافي وتاريخي، يرى الإخوان المسلمون في الدين الإسلامي ركيزة دولة مقبلة لا يمكن أن تكون إلا إسلامية. وقد أسس الجماعة عام 1928 الداعية المصري حسن البنا، وهي تروّج لإقامة دولة دينية في مصر تُدار وفق الشريعة. ولهذا يوصف هذا التيار بأنه يتبنى «الإسلام السياسي». وينبع أسلوب عمل الإخوان المسلمين من الطبيعة السياسية والدينية للجماعة في آن واحد، ويقوم على الأسلمة التدريجية للمجتمع، أو ما يمكن تسميته أيضاً «الأسلمة من القاعدة»⁷⁰. وكما تلخص فلورانس بيرجو-بلاكلي، فإن الهدف النهائي للإخوان المسلمين هو «جمع كل التيارات الإسلامية في حركة كبرى لإقامة الخلافة على الأرض».

وعند تأسيسهم، أراد الإخوان المسلمون أن يقودوا المجتمع المصري إلى العودة إلى مبادئ الإسلام، ومارسوا أنشطة دينية وسياسية على حد سواء. ويتجلى هذا النشاط السياسي والاجتماعي خصوصاً في الأعمال التي نفذتها الجماعة لسد ثغرات الدولة في مجالات شتى، ولا سيما في الجانب الاجتماعي. فقد شجع حسن البنا، أول مرشد عام للإخوان المسلمين، على إنشاء هياكل اجتماعية وخيرية وتعليمية. وتمتع

⁷⁰ <https://www.lefigaro.fr/international/freres-musulmans-arabie-saoudite-egypte-russie-ces-pays-qui-ont-d-ores-et-deja-nterdit-l-organisation-20250523#:~:text=La%20confrérie%20des%20Frères%20musulmans%2C%20organisation%20promouvant%20une%20«islamisation%20par,20%20mai%20par%20Le%20Figaro>

الإخوان المسلمون، بفضل مقاومتهم للقوات البريطانية عبر التفجيرات أو الاغتيالات المحددة الأهداف، بشعبية معينة لدى السكان، وبلغ عدد أعضائهم أكثر من 500,000 في أواخر أربعينيات القرن الماضي.

وفي تلك الحقبة، أخذت فروع الحركة تتجذر في مناطق مختلفة من الشرق الأوسط، مثل سوريا والعراق وفلسطين. ورغم أنها لا تتقاسم تنظيمًا واحدًا ولا برنامجًا مشتركًا، فإن كل جماعة من الجماعات المنبثقة من هذا التيار، مثل حماس أو القاعدة، سنية المذهب، وتمارس الجهاد، وتسعى إلى فرض الشريعة. وتضرب هذه التوجهات بجذورها في العقيدة التي صاغها سيد قطب، الشاعر والكاتب المصري الذي يدعو إلى رؤية متشددة وأصولية للإيمان، تقود إلى اعتبار المسلمين الذين يُعدّون غير متدينين بما يكفي مرتدين، وتدعو إلى الكفاح المسلح ضد أعداء الدين، أي اليهود والمسيحيين والملحدين.

وقد شارك الإخوان المسلمون في الانقلاب الذي أدى إلى سقوط الملك فاروق في يوليو 1952، ثم أقصاهم حلفاؤهم في حركة الضباط الأحرار من السلطة، على خلفية خلاف حول الطابع العسكري والعلماني للحكومة التي أراد هؤلاء إقامتها. وبعد محاولة الاغتيال الفاشلة التي استهدفت زعيم الضباط الأحرار جمال عبد الناصر، سعى الإخوان المسلمون، وقد باتوا محظورين، إلى الظهور بمظهر البديل عن النظام عبر تبني مواقف شعبية. ولن تعود الجماعة إلى الساحة السياسية إلا عام 1970 مع وصول الرئيس أنور السادات إلى السلطة. وسيكرّس الإخوان المسلمون حينها بعدهم السياسي بالكامل عبر خوض الانتخابات التشريعية اعتباراً من عام 1984. وحين استقال الرئيس حسني مبارك في أعقاب الربيع العربي، اختار الإخوان المسلمون مرشحاً للرئاسة هو محمد مرسي، الذي سيصبح أول رئيس منتخب ديمقراطياً في مصر. وفي 3 يوليو 2013، أطاح تحالف بقيادة الفريق عبد الفتاح السيسي بمحمد مرسي، وسيصبح السيسي الرئيس المصري الجديد في 8 يونيو 2014، وسيحظر الإخوان المسلمون مجدداً. وتعرّض هؤلاء لقمع شديد دبّره السلطة، أفضى خصوصاً إلى سجن كثير من أعضائهم.

وكما ذكر آنفاً، للإخوان المسلمين فروع في مناطق مختلفة من الشرق الأوسط. ففي سوريا، تأسس الفرع المحلي للإخوان المسلمين في ثلاثينيات القرن الماضي، وأدى دوراً أساسياً في نشر رسالة التنظيم حين حظر الرئيس عبد الناصر الإخوان المسلمين المصريين عام 1954. وسيعارض الإخوان المسلمون حزب البعث الذي يدعو إلى نظام علماني. وحين استولى حافظ الأسد على السلطة، نصّبت الجماعة نفسها ممثلة للقضية السنية في مواجهة نظام في يد الأقلية العلوية. وستفضي سياسة القمع الحكومية تجاه الإخوان المسلمين إلى مواجهات دامية، منها تلك التي ضربت مدينة حماة مرات عدة عامي 1981 و1982، وقُتل في أعقابها كثير من أعضاء التنظيم أو أرغموا على المنفى. وسيستغل التنظيم الإسلامي، المحروم من النفوذ ومن التجذر المحلي، الحرب الأهلية عام 2011 لدعم جماعات معارضة لنظام بشار الأسد، الذي صنّفه جماعة إرهابية عام 2013. أما في فلسطين، فقد حضر الإخوان المسلمون منذ ثلاثينيات القرن الماضي،

وسيعززون نفوذهم في قطاع غزة والضفة الغربية مع تعاقب الحروب بين الفلسطينيين وإسرائيل، مستخدمين خصوصاً الورقة الإنسانية. وخلافاً لجماعات أخرى مثل منظمة التحرير الفلسطينية، يرى الإخوان المسلمون في إقامة دولة إسلامية هدفاً يتقدم على الصراع مع الجار العبري. وسيبدأ بعض أعضاء التنظيم في الدعوة إلى عمل عسكري ضد إسرائيل في مطلع الثمانينيات، ما سيفضي إلى انشقاق وتأسيس حماس في 14 ديسمبر 1987.

والإسلام السياسي الذي يدعو إليه الإخوان المسلمون هو الخيط الناظم لتمددهم الجغرافي. فتفضيلهم استراتيجية الأسلمة التدريجية للمجتمع، عبر سكانه ومؤسساته، يجعل كشف نشاطهم أصعب من كشف نشاط الجماعات الإسلامية التي تلجأ إلى العنف حصراً. وإلى جانب مصر وسوريا، قررت بلدان كثيرة حظر التنظيم، وأحياناً تصنيفه إرهابياً. وكانت روسيا سبّاقة في هذا الشأن، إذ قررت إدراج الإخوان المسلمين على قائمة الجماعات الإرهابية منذ عام 2003⁷¹. وسلكت بعض الدول العربية، مثل السعودية والإمارات العربية المتحدة والبحرين، التوجه نفسه عام 2014. وفي أبريل الماضي، اتخذ الأردن قراراً مماثلاً، مؤكداً أن الجماعة كانت على وشك التسلح والتحول إلى قوة مزعزعة لاستقرار البلاد. ولهذا قررت الحكومة الأردنية حظر جميع أنشطتها وإغلاق مكاتبها ومصادرة ممتلكاتها على الأراضي الأردنية⁷². وتجدر الإشارة إلى أن الذراع السياسية المحلية للإخوان المسلمين، حزب جبهة العمل الإسلامي، غير مشمول بالحظر⁷³.

وقد تأخرت أوروبا في التعامل مع خطر الإسلام السياسي. ففي عام 2021، أدرجت النمسا الإخوان المسلمين على القائمة السوداء لـ«الجماعات المتطرفة المرتبطة بالجريمة ذات الدوافع الدينية»⁷⁴. ولعل سبب هذا التأخر يكمن في استراتيجية التسلل البطيء التي يعتمد عليها الإخوان، والتي تمنحهم مظهراً من الاحترام مقارنة بالجماعات الإرهابية الإسلامية الأخرى. فاستراتيجيتهم للتسلل إلى الأوساط الرياضية والجمعياتية والسياسية تراهن على المدى الطويل وتعتمد التكتم، ويُتحدث هنا عن «الاختراق» أو عن «جهادية المناخ». وقد كشف تقرير أعدّ بطلب من الحكومة ونشرت مضمونه صحيفة «لوفيغارو» النفوذ الفعلي للجماعة في فرنسا واستراتيجيتها في «المأسسة». وبينما يتحدث وزير الداخلية عن «تهديد واضح جداً للجمهورية، تهديد للتماسك الوطني»، قد تقرر فرنسا بدورها حظر الأنشطة المرتبطة بالإخوان المسلمين. فالسوابق التاريخية المذكورة أعلاه تكشف خطورة الإخوان المسلمين على استقرار أي نوع من أنظمة الحكم، ومن باب أولى على جمهورية يكون نظامها الديمقراطي أكثر تساهلاً من النظام القائم في

https://www.bfmtv.com/societe/religions/russie-egypte-jordanie-ces-pays-qui-ont-deja-interdit-les-freres-musulmans_A71-N-202505220812.html

<https://www.france24.com/fr/moyen-orient/20250424-jordanie-freres-musulmans-interdiction-activites-securite-nationale-gouvernement>

<https://orientxxi.info/magazine/jordanie-malgre-leur-interdiction-les-freres-musulmans-toujours-present,8235>

<https://www.marianne.net/autriche-premier-pays-europeen-a-interdire-les-freres-musulmans>

حكم عسكري. وينبغي لهذه السوابق، وكذلك لقرارات الحظر التي أصدرتها بلدان مختلفة في الشرق الأوسط، أن تدفع فرنسا وغيرها من البلدان الأوروبية إلى تحصين نفسها من خطر الإسلام السياسي، بحظر هذا التنظيم وتصنيفه جماعة إرهابية.

وبالنظر إلى الوضع في سوريا، من المرجح أن يحاول التنظيم الإخواني استغلال الالتباس الذي يكتنف بدايات الحكومة لاستعادة نفوذ وتجذر محلي. فاستراتيجية الإخوان في أسلمة السياسة ستنافس على الفور سلطة أحمد الشرع، ولذلك يبدو من المستبعد أن يسمح هذا الأخير من تلقاء نفسه بعودة رسمية للجماعة إلى سوريا. غير أن من المرجح أن يقرر الإخوان المسلمون سلوك طريق آخر، عبر دعم بعض الجماعات المسلحة الرافضة للاندماج في القوات السورية، فيعرقلون بذلك مشروع التوحيد الذي يحمله الرئيس الجديد أحمد الشرع. وبذلك قد يتمكنون من إحياء نفوذهم والعمل عن بُعد على تحقيق هدفهم النهائي: إقامة دولة إسلامية.

ثم إن صعود الإخوان المسلمين على الساحة السياسية السورية سيخدم مصالح قوة سنية تبحث عن نفوذ إقليمي: تركيا. فأنقرة، التي تُعد مع قطر من أبرز الداعمين الماليين للتنظيم الإسلامي، قد ترى في الشكوك المحيطة ببدايات حكومة أحمد الشرع فرصة كي يؤدي الإخوان المسلمون فيها دوراً من الصف الأول. وتركيا، التي دعمت جماعات إسلاموية، ولا سيما «هيئة تحرير الشام»، خلال الحرب الأهلية السورية، ستجني من ذلك مكاسب مهمة، خصوصاً في إطار منافستها عن بُعد مع إيران على الزعامة الإقليمية. فمن حيث السمعة، كان سقوط بشار الأسد صفة لآية الله خامنئي الذي لم يعرف كيف يدعم حليفاً مهماً. ثم إنه يحرم إيران من طريق لنقل المعدات العسكرية إلى وكيلها اللبناني، حزب الله. وهكذا قد يتمكن رجب طيب أردوغان، الذي يتبنى رؤية إسلامية للسلطة السياسية، من الاعتماد على حليف سياسي وأيديولوجي جديد، وكذلك من إضعاف «محور المقاومة» لصالح «المحور الإخواني».

ويرى جيل كيبيل أن النفوذ السياسي لتركيا أو قطر قد يقترن أيضاً بتقديم دعمهما المالي لمشروع إعادة الإعمار الذي يحمله الرئيس الجديد، وهو ما من شأنه أن يزيد من إحكام هذا المحور قبضته المحتملة على دمشق. ومثل هذه الفرضية ستشكل حجة وازنة تعزز أطروحة عودة الإمبراطورية العثمانية⁷⁵. كما أنها ستقوّض مباشرة فرص نجاح مشروع التوحيد الذي يدعو إليه أحمد الشرع، وتهدد التوازن الهش الذي يحاول رجل دمشق القوي الجديد الحفاظ عليه بين مختلف الطوائف الدينية.

إن عدم الاستقرار الملازم لكل نظام جديد، والخلافات الطائفية التي قد تعرقل تقدم سوريا نحو حقبة من الاستقرار، ينبغي أن يدفع السلطات المحلية وحلفاءها، الإقليميين والغربيين، إلى منع أي اختراق إخواني

⁷⁵ <https://www.tdg.ch/la-turquie-et-le-qatar-sont-desormais-les-maitres-de-damas-767835884109>

لسوريا. وفي هذا الصدد، قد تكون قرارات رفع العقوبات التي اتخذتها واشنطن وبروكسل حاسمة لتوفير بديل في تمويل مشروع إعادة إعمار البلاد، ومن ثم مواجهة النفوذ الاقتصادي للدوحة وأنقرة. فمرحلة جديدة من عدم الاستقرار قد تثير المخاوف من اندلاع حرب أهلية، علماً بأن الحرب الأخيرة شكلت خصوصاً أرضاً خصبة لإقامة داعش خلافته عام 2014.

منذ السابع من أكتوبر: الطريق نحو شرق أوسط جديد

يمر الشرق الأوسط بلا جدال بتحولات عميقة قد يكون لها أثر بالغ في مستقبل المنطقة. فتداعيات الصراع الإسرائيلي الفلسطيني تطل مجتمعات البلدان العربية، وكذلك مجتمعات البلدان الغربية، كاشفة عن تناقضات تغذيها وتفاقمها مواقف سياسية مُدانة لأحزاب تتبنى مواقف أيديولوجية تبسّطية خدمة لاستراتيجية انتخابية يشوبها الاستهتار.

وكما ذكر أعلاه، لا بد من التشديد على أن نصيب أحزاب أقصى اليسار من المسؤولية عن تطرف النقاش أكبر بكثير من نصيب التشكيلات الواقعة في الطرف المقابل من الطيف السياسي. ويعود ذلك خصوصاً إلى استخدام خطاب تحريضي، وإلى إطلاق تصريحات معادية للسامية أحياناً بصورة صريحة. والحرب في غزة، التي يعمّق استمرارها انقسام الرأي العام، يجب حتماً أن تنتهي على نحو يرضي الشعبين قدر المستطاع. وفي هذا الصدد، يجب أن تجد القضية الفلسطينية جواباً لا يمكن أن يقدمه إلا المجتمع الدولي، بحيث يضمن في مرحلة أولى تعايشاً سلمياً بين الشعبين، ثم في نهاية المطاف حل الدولتين بشروط ترضي الطرفين. وسنتناول الشروط التي نراها لا غنى عنها للتوصل إلى حل سلمي دائم، كما سنحلل مدى قابلية خطة السلام التي اقترحتها الرئيس الأميركي دونالد ترامب للتطبيق. فعلى تسوية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يتوقف إحلال السلام في المنطقة، وهي مرحلة لا غنى عنها لخوض كفاح فعال ومتعدد الأطراف ضد الإرهاب الإسلامي الذي يخيم شبح عودته على الشرق الأوسط، مع عواقب مباشرة في مناطق أخرى من العالم مثل أوروبا وآسيا وأميركا الشمالية.

إن التوصل إلى رد مشترك على القضية الفلسطينية سيتيح أيضاً إعادة الزخم إلى سياسة التطبيع، التي تُعدّ رافعة مهمة للاستقرار الإقليمي.

وسيتعين كذلك إيجاد استراتيجية قادرة على احتواء التهديد الذي يمثله نظام الملالي احتواءً نهائياً. وإذا كان «محور المقاومة» قد فقد قدراً كبيراً من زخمه ونفوذه، فإنه سيتعين مع ذلك إيجاد حل للمشكلة التي تطرحها الميليشيات الشيعية في العراق، وهي ذراع إيرانية تحظى بتغطية إعلامية تتناسب عكسياً مع قدرتها على الأذى. وأخيراً، يجب حسم الملف النووي الإيراني بصورة حازمة ونهائية. وفي هذا الصدد، قد يتبين أن التفوق الساحق الذي حققته واشنطن وتل أبيب على طهران منذ حرب الـ12 يوماً ورقة ثمينة.

شرق أوسط يتجه نحو السلام؟

الحل الفلسطيني الذي لا غنى عنه

يبدو وضع حد للصراع الإسرائيلي الفلسطيني أمراً ملحاً بالنظر إلى الحصيلة البشرية والأزمة الإنسانية الناجمتين عن الحرب في غزة التي اندلعت في أعقاب هجمات 7 أكتوبر/تشرين الأول. ومن المرجح أنه كان بالإمكان تفادي هذه الأحداث، شأنها شأن المواجهات بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وكذلك تلك التي دارت بين إسرائيل وبعض الدول العربية مثل مصر، لو لم يبقّ القرار 181 الذي صوتت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة في 29 نوفمبر/تشرين الثاني 1947 حبراً على ورق. ويمكن لحل الدولتين، إذا اعتمد في ظروف مرضية لجميع الأطراف، أن يتيح تعايشاً سلمياً بين الشعبين. غير أن الحلول المطروحة حتى الآن كانت تعاني جميعها من عيب جوهري أو أكثر، بل من عيوب تجعلها غير قابلة للتطبيق أصلاً، وستناولها وفق ترتيبها الزمني. ويشكل مصير حركة حماس، التي يُعدّ القضاء عليها مادياً أحد أهداف حكومة بنيامين نتنياهو، المصدر الرئيسي للخلاف بين الأطراف المختلفة.

وخلال قمة طارئة عُقدت في القاهرة في 4 مارس/آذار الماضي، أقرّ قادة الدول العربية خطة بقيمة 53 مليار دولار لإعادة إعمار قطاع غزة. وتتصور خطة القاهرة، التي أريد لها أن تكون بديلاً عن مشروع التهجير الذي اقترحه دونالد ترمب، إعادة إعمار تمتد على خمس سنوات. وإذا كانت مرحلة إعادة الإعمار ضرورية لا غنى عنها، فإن الهيكلية التي رسمتها الخطة لهذه المرحلة كانت تشوبها ثغرات عدة. فقد كان المقرر أولاً أن تُسند إدارتها لمدة ستة أشهر إلى لجنة إدارية مؤلفة من شخصيات محلية غير حزبية، قبل أن تستعيد السلطة الفلسطينية السيطرة على قطاع غزة. وفضلاً عن المعادلة المستحيلة المتعلقة بتشكيل اللجنة، تبدو عودة السلطة الفلسطينية إلى الحكم محكوماً عليها بالفشل، إذ تعاني من سمعتها ككيان فاسد. كما أنها تفتقر إلى الشعبية على نطاق واسع جداً بين سكان غزة، لا سيما منذ أن ارتكبت قواتها الأمنية أعمال عنف في مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية. وكان هذا هو الحال على وجه الخصوص خلال عملية «حماية وطن» الرامية إلى استعادة السيطرة على مخيم جنين في يناير/كانون الثاني الماضي⁷⁶.

وإلى جانب إشكاليات الشرعية هذه، لم تكن خطة القاهرة تتيح حسم مسألة حماس، التي يُعدّ زوالها الهدف الأول لبنيامين نتنياهو ودونالد ترمب. فأولاً، يستحيل ضمان عدم تسلل بعض عناصرها إلى اللجنة الإدارية. وثانياً، تتباين مواقف الدول العربية التي اجتمعت في هذه القمة بشأن المكانة التي ينبغي منحها لهم. فبينما تبدو الإمارات العربية المتحدة عازمة على إبعادهم عن السلطة، تتبنى مصر مقاربة أكثر مرونة باقتراحها إشراك فصائل فلسطينية مسلحة أخرى في الحكم؛ وهو حل لا حظّ له في أن تقبله تل أبيب.

⁷⁶ <https://www.lefigaro.fr/international/ils-nous-torturent-et-s-amusent-a-nous-humilier-a-jenine-l-autorite-palestinienne-s-efforce-de-reprendre-la-main-20250111>

ومن جهة أخرى، فإن فرضية عودة السلطة الفلسطينية إلى الحكم غير مستحبة أيضاً لسبب آخر. فكما يذكر جوناثان ساسيردوتي في مقال نشرته المجلة الأسبوعية البريطانية المحافظة «ذا سبكتيتور» (The Spectator)، فإن موقف محمود عباس، زعيم السلطة الفلسطينية، في أعقاب الهجمات الإرهابية في 7 أكتوبر يجعل هذا الخيار مرفوضاً. فقد وصف السيد عباس المذبحة بأنها «نصر استراتيجي للقضية الفلسطينية»⁷⁷. وعلى نطاق أوسع، يبدو جلياً أن رئيس السلطة الفلسطينية لا يرغب في حل سلمي للصراع. فكما ورد في مقال السيد ساسيردوتي، رفض السيد عباس عام 2008 اتفاق سلام اقترحه رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، السيد إيهود أولمرت، كان يضمن قيام دولة فلسطينية. وفي عام 2011، وقّع السيد عباس مقالاً في صحيفة «نيويورك تايمز» أشار فيه إلى أن قبول فلسطين في الأمم المتحدة «سيمهد الطريق لتدويل الصراع بوصفه مسألة قانونية، لا سياسية فحسب». وكان ذلك بمثابة رفض مسبق لأي تفاوض مع إسرائيل، مع مطالبة المجتمع الدولي بالضغط على الدولة العبرية عبر إجراءات تقاض⁷⁸. وفي عام 2014، انسحب السيد عباس من المفاوضات التي جرت برعاية جون كيري، وزير خارجية باراك أوباما آنذاك، على خلفية رفض الاعتراف بوجود دولة إسرائيل. وتُظهر هذه السوابق أن الأراضي الفلسطينية سيتعين عليها أن تتزود بسلطة لا تكون حماس ولا السلطة الفلسطينية، من أجل التقدم بفاعلية نحو حل سلمي.

وفي فترة أحدث، أجرى إيهود أولمرت، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، وناصر القدوة، وزير الخارجية الفلسطيني الأسبق وابن شقيقة ياسر عرفات، محادثات بهدف تصور سيناريو يفضي إلى تحقيق حل الدولتين⁷⁹. ويقترح الرجلان، إدراكاً منهما أن حماس تشكل العقبة الرئيسية أمام مشروع السلام هذا، أن تتخلى الجماعة الإرهابية عن السيطرة على غزة وعن سلاحها في آن واحد لتصبح مجرد حزب سياسي. ويضيفان إلى ذلك شروطاً تقضي بأن تعترف حماس بدولة إسرائيل، وتنبذ الإرهاب، وتلتزم بالاتفاقات القائمة بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل. ومن الناحية الأيديولوجية، يُستبعد أن تقبل حماس هذه الشروط، إذ ينص ميثاقها على أن من يقيمون على هذه الأرض لا يملكون سوى حق الانتفاع بها، وأنها «أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة»⁸⁰. كما يُستبعد إلى حد بعيد أن تتخلى حماس عن سلاحها، حتى وإن كانت الحركة تواجه صعوبات كبيرة في الميدان العسكري أمام الجيش الإسرائيلي، وتتعرض لاعتراض متزايد من سكان القطاع الذين يحملونها جزءاً من المسؤولية عن مآسيهم وعن الأزمة الإنسانية. وتشهد على ذلك المظاهرات غير المسبوقية التي قمعها عناصر حماس بعنف⁸¹.

⁷⁷ <https://www.spectator.co.uk/article/the-danger-of-recognising-a-palestinian-state/>

⁷⁸ <https://www.nytimes.com/2011/05/17/opinion/17abbas.html?searchResultPosition=1>

⁷⁹ Le Figaro. « À Paris, Ehud Olmert et Nasser al-Qidwa rappellent l'urgence d'un État palestinien » (في باريس، إيهود

أولمرت وناصر القدوة يذكران بالحاجة الملحة إلى دولة فلسطينية)، 10، Le Figaro، 10 يونيو/حزيران 2025.

⁸⁰ Libération. « Est-il vrai que la charte du Hamas fixe comme objectif la destruction de l'État d'Israël ? » (« هل صحيح أن

ميثاق حماس يجعل تدمير دولة إسرائيل هدفاً له؟ »)، 14، Libération - CheckNews، 14 أكتوبر/تشرين الأول 2023.

⁸¹ The Telegraph. « Hamas beat protester to death on Gaza doorstep: Oday al-Rabbay », The Telegraph، 30 مارس/آذار

2025.

كما يتناول الوزيران السابقان، الفلسطيني والإسرائيلي، حالة الضفة الغربية، فيقترحان أن يُخَيَّر الإسرائيليون المقيمون في بعض المستوطنات، وعددهم نحو 70 ألف شخص، بين مغادرة المستوطنات المعنية أو البقاء على هذه الأراضي تحت سيطرة السلطة الفلسطينية. غير أن آليات تعويض الإسرائيليين الذين يقبلون مغادرة المستوطنات لم تُحدّد. فضلاً عن ذلك، وهنا تكمن نقطة ضعف المشروع، ستعود السيطرة على الأراضي الفلسطينية إلى السلطة الفلسطينية، وهو حل يبدو غير وارد للأسباب المذكورة أعلاه.

وفي 9 يونيو/حزيران الماضي، وجّه رئيس السلطة الفلسطينية الراسخ في منصبه، محمود عباس، إلى الرئيس إيمانويل ماكرون وولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان رسالة يؤكد فيها أن الدولة الفلسطينية المقبلة «لا تنوي أن تكون دولة مسلحة»⁸². وفي هذه الرسالة، يدين السيد عباس حماس للمرة الأولى ويتعهد بإجراء انتخابات تشريعية سريعة. وإذا كان التخلي عن أي دولة مسلحة والإدانة الصريحة لحماس يمثلان تقدماً لا يُنكر على الصعيد الدبلوماسي، فإن الثقة بالسلطة الفلسطينية ورئيسها قد تآكلت على نحو لا رجعة فيه، بحيث لا يُتوقع أن تُترجم هذه الخطة إلى أفعال.

وإذا كانت كل هذه المقترحات تسير في الاتجاه الصحيح، فإنها تقصّر إما لأنها لا تحسم مسألة حماس، وإما لأنها تنص على إسناد إدارة الأراضي الفلسطينية إلى تنظيم سياسي يعاني من أزمة ثقة، وأثبت ماضيه عجزه عن كبح خطر الإرهاب الإسلامي أو عن العمل من أجل حل سلمي.

ولكي تكون لأي حل فرصة في النجاح، يبدو لنا أنه يتعين أن يستوفي عدداً من الشروط. فإلى جانب الإعادة الفورية لجميع الرهائن، الأحياء منهم والأموات، الذين لا يزالون في قبضة التنظيمات الإرهابية الفلسطينية، يجب استيفاء الشروط المدرجة أدناه:

(i) شروط ذات طابع أمني:

- يجب إقصاء حماس وجميع الجماعات الإرهابية الفلسطينية التي شاركت في هجمات 7 أكتوبر إقصاءً نهائياً من الحكم ومن الحياة السياسية في الدولة الفلسطينية المقبلة. ويجب نفي قادتها وعناصرها وكل شخص تربطه بهذه التنظيمات صلات، أياً كانت طبيعتها.
- يجب بالضرورة أن تكون الدولة الفلسطينية المقبلة منزوعة السلاح من أجل طمأنة إسرائيل وسكانها الذين لا يزال لاوعيهم الجمعي مصدوماً بهجمات 7 أكتوبر.

⁸² https://www.lemonde.fr/international/article/2025/06/11/l-elysee-en-quete-d-une-dynamique-avant-de-reconnaitre-l-eta-t-de-palestine_6612204_3210.html

- يجب إطلاق حملة «لاجثثات حماس» من أجل معالجة التلقين العقائدي الذي فرضته حماس على السكان الفلسطينيين منذ وصولها إلى السلطة في أعقاب انتخابات 2006.

(ii) شروط ذات طابع تنظيمي:

- يجب نقل سكان قطاع غزة مؤقتاً خلال فترة إعادة الإعمار. ويجب أن تتاح لهم إمكانية العودة للعيش في القطاع بعد انتهاء الأعمال.
- إن مشاركة الولايات المتحدة شرط لا غنى عنه لاستدامة أي خطة سلام. فالولايات المتحدة، الحليف التقليدي لإسرائيل، تحظى بدرجة عالية من الثقة لدى عدد كبير جداً من الدول العربية ودول الخليج، ولا سيما بفضل دبلوماسية دونالد ترمب. وسيكون وجود واشنطن ضامناً لفاعلية أي خطة سلام.
- غير أن الدولة المنزوعة السلاح لا تعني دولة بلا دفاع. فأمن السكان الفلسطينيين سيتولاه جهازان منفصلان: عملية لحفظ السلام مصممة على غرار قوة اليونيفيل تتيح ضمان مراقبة الحدود، أما أمن الفلسطينيين داخل الأراضي فستتولاه قوة تضم جنوداً ترسلهم الدول الأعضاء في تحالف يشمل الولايات المتحدة وكل دولة عربية طبّعت علاقاتها مع إسرائيل.
- يجب إسناد الإدارة السياسية إلى تحالف يقوم على المنطق نفسه إلى حين تأسيس أحزاب سياسية جديدة غير مسلحة وتوافر إمكانية إجراء انتخابات.

ويبدو لنا من المهم إقصاء السلطة الفلسطينية من أي دور سياسي في الدولة الفلسطينية المقبلة.

- ## (iii) شروط ذات طابع اقتصادي: يجب أن يؤمّن تمويل الدولة الفلسطينية المقبلة من العائدات المتأتية من الأنشطة الاقتصادية التي ستطوّر في قطاع غزة بعد نزع سلاحه وإعادة إعمارها. وإلى جانب تكوين ميزانيات الدولة الفلسطينية المقبلة، ستتيح هذه العائدات سداد ما أنفقته الدول المشاركة في إعادة الإعمار وفي إدارة القطاع.

(iv) شرط ذو طابع أخلاقي:

- يجب ألا ينسى التاريخ أبداً أن هذه الحرب اندلعت بسبب مذبحه 7 أكتوبر. ومن واجب المجتمع الدولي أن يقف إلى جانب إسرائيل وسكانها في حادهم. وفي هذا الصدد، يبدو إنشاء محكمة مخصصة لمحاكمة أعضاء حماس وأي تنظيم متورط، على غرار محكمة نورمبرغ، حلاً وجيهاً. فالفظائع المرتكبة في 7 أكتوبر هي بلا شك جرائم ضد الإنسانية يجب ألا تُنسى أبداً.

يجب تفكيك وكالة الأونروا وإسناد إدارة المساعدات الإنسانية إلى منظمة جديدة.

أما بخصوص حماس، فمن البديهي أنه يتعين عليها، كحد أدنى، أن تتخلى عن جناحها العسكري، بل وعن أي سلطة سياسية أيضاً. فبهذا الثمن وحده ستفكر الدولة العبرية في منح ثقتها لسلطات دولة فلسطينية. ونزع السلاح الكامل للعناصر والبنى التحتية تحت إشراف تحالف دولي، إلى جانب نفي من بقي على قيد الحياة من قادة التنظيم، مساران يجب استكشافهما. وحماس، المحاصرة بين الجيش الإسرائيلي والتدمير الشعبي في صفوف الفلسطينيين، لا تملك على أي حال بديلاً آخر. فحماس، التي لا تزال تحتجز رهائن أحياء وجثث رهائن متوفين، ترى فيهم وسيلة لضمان بقائها في السلطة، وفي الوقت نفسه لانتزاع اعتراف المجتمع الدولي بدولة فلسطينية. والنتيجة الوحيدة لهذا الحساب الانتهازي هي تكثيف الحملة العسكرية للجيش الإسرائيلي وإطالة معاناة الشعب الفلسطيني. إن الاعتراف بدولة فلسطينية في حين لا تزال حماس في السلطة وتحتجز رهائن سيكون خطأً استراتيجياً وأخلاقياً قد يُعدّ «مكافأة للإرهاب»⁸³. وهي فرضية لن تقبلها إسرائيل ولا تبشر بتهدئة العلاقات بين الجارين. وقد عدّت إسرائيل خيانةً قرارَ رئيس الجمهورية الفرنسية الاعتراف بدولة فلسطينية في 22 سبتمبر/أيلول خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة، من دون أن يستبعد صراحة حماس من أي دور سياسي فيها.

وبعد حسم مسألة حماس، سيتعين إسناد إعادة إعمار الإقليم إلى تحالف دولي يضم دولاً عربية ودولية. ومن شأن وجود جنود من كل من هذه الدول أن يتيح ضمان أمن سكان الأراضي الفلسطينية وأمن الإسرائيليين في آن معاً. ويجب اختيار الدول المشاركة في هذا التحالف بحيث لا يبقى أي شك في احتمال انحياز وحداتها. ووفق هذا المنطق، لا يمكن قبول مشاركة إسرائيل أو سوريا أو لبنان أو إيران أو تركيا أو قطر.

ويمكن أن يرافق هذين الإجراءين تدخل غير محدد المدة لقوات القبعات الزرق على نموذج مماثل لنموذج اليونيفيل. ومع استنادها إلى وجود التحالف، ستجد هذه القوات ممارسة مهامها أيسر. ومن شأن مثل هذا التدخل من جانب المجتمع الدولي أن يتيح تأسيس أحزاب سياسية جديدة لا يمكن أن ينضم إليها الفلسطينيون أصحاب السوابق في العمل المسلح أو الذين أقاموا أي صلات بـحماس أو بأي جماعة إرهابية أخرى في القطاع. وستكون الخطوة التالية إجراء انتخابات ديمقراطية تحت إشراف التحالف الدولي. وبمجرد قيام السلطة الجديدة واستقرار الأوضاع، يمكن النظر بجدية في مسألة الاعتراف بدولة فلسطينية.

⁸³ غير أن بعض الدول، مثل المكسيك وأيرلندا وإسبانيا والنرويج وسلوفينيا، قررت الاعتراف بدولة فلسطينية بعد هجمات 7 أكتوبر.

ولن تنعم المنطقة بسلام دائم إلا بهذا الثمن، أي بمثل هذا الحل وبتسوية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. وهو حل يجب أن يقترن بالضرورة بمواصلة تطبيع العلاقات بين إسرائيل والدول العربية. وتستجيب الخطة التي اقترحها دونالد ترمب لكثير من الشروط المعروضة أعلاه. غير أنه سيتعين، كما نقترح، النص على إنشاء هيئة قضائية خاصة تتيح لإسرائيل ملاحقة أعضاء حماس ومحاكمتهم على غرار محكمة نورمبرغ. ولا يبدو العفو الذي تنص عليه خطة ترمب مقبولاً لإسرائيل. ومن المناسب التوضيح أن أي دولة تشارك في إعادة إعمار القطاع والدولة الفلسطينية المقبلة يجب أن تكون قد طُبعت علاقاتها مع إسرائيل مسبقاً.

وفي الوقت الذي نكتب فيه هذه السطور، تجري مفاوضات في القاهرة من أجل أن تقبل جميع الأطراف خطة ترمب، وهو ما سيضع حداً نهائياً لهذه الحرب وبيّح تصور شرق أوسط جديد.

مواصلة مسار التطبيع بين إسرائيل وجيرانها

إن عملية التطبيع بين الدول العربية ذات الأغلبية السنية ودولة إسرائيل، التي علّقها الحرب في غزة، هي حجر الزاوية لشرق أوسط ينعم بالسلام أخيراً.

والتطبيع عملية تشمل مراحل عدة. فمثل هذا الاتفاق يُضفي أولاً طابعاً رسمياً على اعتراف الدولة العربية المعنية بدولة إسرائيل، فاتحاً بذلك الطريق أمام إقامة علاقة دبلوماسية بين البلدين. والنتيجة المنطقية لإقامة هذه الصلة هي افتتاح سفارات تجسّد انطلاق هذا الحوار. كما ينطوي التطبيع على جانب اقتصادي، إذ يتيح مبادلات تجارية رسمية بين البلدين.

وكانت مصر أول دولة عربية تعترف رسمياً بوجود إسرائيل، وذلك عام 1979. ويعود هذا الموقف غير المسبوق للدولة المصرية في الواقع إلى 19 نوفمبر/تشرين الثاني 1977، حين اعترف الرئيس المصري أنور السادات بوجود إسرائيل في خطاب أمام الكنيست⁸⁴، مقابل انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها عام 1967 خلال الفصل الثالث من الحروب العربية الإسرائيلية⁸⁵. وستتعرّ المباحثات، التي جرت برعاية الولايات المتحدة، أمام رفض مناحيم بيغن، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، إعادة الأراضي المذكورة والاعتراف بحقوق السكان الفلسطينيين. غير أن الرئيس الأميركي جيمي كارتر نجح في إبقاء المفاوضات قائمة، وجمع الطرفين في كامب ديفيد مطلع سبتمبر/أيلول 1978. وستفضي المساومات إلى اتفاقين منفصلين. يتعلق الأول بالوضع في غزة والضفة الغربية، وينص على إجراء مفاوضات من أجل

⁸⁴ الكنيست هو البرلمان الإسرائيلي.

⁸⁵ <https://www.lesclesdumoyenorient.com/Conference-de-Camp-David.html>

حصول هذه الأراضي على حكم ذاتي انتقالي لمدة خمس سنوات. ولم يتح هذا الاتفاق، الذي جاء مبهماً نسبياً، إحراز تقدم في مسألة وضع الأراضي الفلسطينية.

أما الاتفاق الثاني، الموقع في 17 سبتمبر/أيلول 1978، فيرسي أسس معاهدة سلام ويتضمن اعتراف مصر بإسرائيل، وإقامة علاقة دبلوماسية، واستئناف المبادلات العابرة لقناة السويس، وانسحاب القوات الإسرائيلية من منطقة سيناء. وستوقع معاهدة السلام التي تركز هذه الاتفاقات في 26 مارس/آذار 1979 في واشنطن بين أنور السادات ومناحيم بيغن.

ثم تبع الأردن مصر، إذ وقع معاهدة سلام⁸⁶ مع إسرائيل في 26 أكتوبر/تشرين الأول 1994 في وادي عربة، الواقع بين البحر الأحمر والبحر الميت. وكانت ديباجة المعاهدة تهدف إلى «تطوير علاقات ودية وتعاون» بين البلدين، وشهدت التزام إسرائيل باحترام «الدور الخاص للمملكة الأردنية الهاشمية في الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس»⁸⁷. وسيثير هذا الدور الخاص استياء الفلسطينيين، ولا سيما منظمة التحرير الفلسطينية التي تعدّ القدس الشرقية خاضعة للسيادة الفلسطينية. كما تعهدت عمان بالتخلي عن المطالبة بالضفة الغربية. وفي مقابل هذه التنازلات، استفاد الأردن من استئناف المساعدات الأميركية التي كانت قد عُلقت خلال أزمة الكويت، بعدما وقفت عمان آنذاك إلى جانب العراق⁸⁸. وبسبب الجدل المرتبط بهذا الدور الخاص وغياب أي حل للقضية الفلسطينية، فإن العلاقات بين الدولتين قائمة لكنها تبقى فاترة. وقد تجلى هذا الواقع في عدم تجديد ملحق من معاهدة السلام، عام 2018، كان يسمح لإسرائيليين باستغلال أراضي أردنية⁸⁹ لمدة خمسة وعشرين عاماً بموجب «وضعها تحت التصرف مجاناً»⁹⁰.

ثم كان لا بد من انتظار أكثر من 25 عاماً قبل أن يُسلك مسار التطبيع من جديد. فبمبادرة من دونالد ترمب، الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة آنذاك، وقّعت اتفاقيات أبراهام⁹¹، المؤلفة من معاهدين، في 15 سبتمبر/أيلول 2020 بين الإمارات العربية المتحدة والبحرين وإسرائيل، من أجل تطبيع علاقاتها الدبلوماسية وإتاحة إطلاق شراكات اقتصادية بين الموقعين وتل أبيب. ثم وقع المغرب اتفاقيات أبراهام في 22 ديسمبر/كانون الأول 2020. كما أعلن السودان وإسرائيل رسمياً في 2 فبراير/شباط 2023 توصلهما إلى اتفاق «للمضي نحو تطبيع العلاقات». وسيأتي التوقيع الرسمي على اتفاقيات

⁸⁶ ويُطلق عليها أيضاً اتفاقية وادي عربة.

⁸⁷ <https://fr.timesofisrael.com/25-ans-apres-israel-et-la-jordanie-ignent-lanniversaire-du-traite-de-paix/>

⁸⁸ <https://www.middleeasteye.net/fr/opinion-fr/jordanie-accord-israel-emirats-influence-diplomatie-normalisation>

⁸⁹ كانت هذه الأراضي تقع في منطقتي الباقورة (شمال الأردن) والعمر (جنوب البلاد).

⁹⁰ https://www.lemonde.fr/international/article/2019/11/11/la-jordanie-recupere-des-terres-pretees-a-israel-dans-le-cadre-d-un-accord-de-paix_6018720_3210.html

⁹¹ يشير اسم المعاهدة إلى أبراهام (إبراهيم)، الذي يُعدّ أباً للآباء أو نبياً، وهو شخصية مشتركة بين الديانات التوحيدية الثلاث.

أبراهام بعد أن تنجح الخرطوم في تشكيل حكومة مدنية، وهو ما لم يتحقق بعد. ويستجيب هذا التقارب أيضاً لمنطق جيوسياسي، إذ إن لإسرائيل والدول العربية الموقعة ذات الأغلبية السنية مصلحة مشتركة في احتواء تهديد البرامج النووية الإيرانية. غير أن هذه الاتفاقيات، رغم كونها تقدماً دبلوماسياً لا جدال فيه، كانت تعاني من عيب جوهري يتمثل في أنها أنزلت القضية الفلسطينية إلى مرتبة ثانوية. وقد شهدت عملية التطبيع هذه أول توقف لها حين حلّ الديمقراطي جو بايدن محل دونالد ترمب إثر الانتخابات الرئاسية الأميركية في نوفمبر/تشرين الثاني 2020. وإذا كان مسار التطبيع مجمداً اليوم، فذلك يعود قبل كل شيء إلى استمرار الملف الفلسطيني والأزمة الإنسانية التي تضرب قطاع غزة. وهكذا تستبعد المملكة العربية السعودية أي تطبيع لعلاقاتها مع إسرائيل ما لم تُنشأ دولة فلسطينية⁹². ولا يزال التطبيع من المحرمات في بعض الدول العربية مثل ليبيا، حيث أدى الكشف عن لقاء بين وزيرة الخارجية الليبية نجلاء المنقوش ونظيرها الإسرائيلي آنذاك إيلي كوهين إلى إيقاف السيدة المنقوش عن مهامها في الحكومة⁹³.

ومن ثم فإن التوصل إلى توافق جميع الأطراف على حل مُرضٍ للصراع الإسرائيلي الفلسطيني أمر أساسي أيضاً لمواصلة تطبيع العلاقات بين الدول العربية ذات الأغلبية السنية والدولة العبرية. وتعدّ عودة دونالد ترمب إلى البيت الأبيض منذ 20 يناير/كانون الثاني الماضي إشارة إيجابية لمواصلة اتفاقيات أبراهام، ولا سيما بالنظر إلى العلاقات التي يقيمها مع دول الخليج، وخصوصاً مع الأمير محمد بن سلمان، ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء السعودي. وقد تجلت هذه السلاسة في العلاقة والقرب من «MBS» خلال جولة استمرت أربعة أيام قام بها الرئيس الأميركي في الشرق الأوسط بين 13 و16 مايو/أيار الماضي. وإلى جانب الحفاظ على القناة الدبلوماسية، شكلت هذه الزيارة فرصة للرئيس الجمهوري للحصول من دول الخليج على اتفاقات استثمار بمبلغ قياسي يقدر بين تريليون⁹⁴ و تريليوني دولار⁹⁵.

وقد أتاحَت المباحثات الجارية بشأن نزع سلاح حزب الله اللبناني بروز موضوع آخر، هو تطبيع العلاقات بين تل أبيب وبيروت. فقد صرّح وزير الخارجية الإسرائيلي جلعون ساعر بأن إسرائيل «مهمة بتوسيع دائرة السلام والتطبيع في اتفاقيات أبراهام»⁹⁶، وهو تصريح يشمل لبنان وسوريا. وقد أبدت واشنطن تأييدها لفكرة توسيع دائرة التطبيع هذه عبر توم براك، مبعوثها الخاص إلى البلدين المعنيين، لبنان

⁹² https://www.bfmtv.com/international/moyen-orient/l-arabie-saoudite-dement-toute-normalisation-avec-israel-sans-creation-d-un-etat-palestinien_AP-202502050320.html

⁹³ <https://www.france24.com/fr/afrique/20230827-la-chef-de-la-diplomatie-libyenne-suspendue-apres-une-rencontre-avec-son-homologue-israelien>

⁹⁴ ولذلك يُحدث عن رحلة «تريليون دولار» (1000 مليار دولار).

⁹⁵ Coface. « Donald Trump décroche près de 2000 milliards d'investissements lors de sa tournée dans le Golfe : tournant stratégique ou simple effet d'annonce ? » («دونالد ترمب يحصد قرابة 2000 مليار من الاستثمارات خلال جولته في الخليج: منعطف استراتيجي أم مجرد إعلان؟»)، 22 Coface، مايو/أيار 2025.

⁹⁶ <https://www.lefigaro.fr/international/israel-se-dit-interesse-par-une-normalisation-de-ses-relations-avec-la-syrie-et-le-liban-20250630>

وسوريا. إذ أعرب الأخير عن ثقته في فرص توصل لبنان وإسرائيل إلى تهدئة حدودهما، معتبراً أن «الاتفاق ضرورة»⁹⁷.

وعلى الجانب اللبناني، تميّز السلطات بين التطبيع والتهدئة. فالرئيس جوزيف عون يستبعد في الوقت الراهن أي تطبيع لعلاقات بلاده مع الدولة العبرية، كما يشهد على ذلك تصريحه الذي جاء فيه: «السلام هو حالة اللاحرب، وهذا ما يهمنا في لبنان في الوقت الراهن»، و«مسألة التطبيع غير واردة في السياسة اللبنانية الخارجية الراهنة»⁹⁸. غير أن التطبيع، الذي يُعدّ سابقاً لأوانه، يبدو مؤجلاً أكثر منه مرفوضاً رفضاً قاطعاً ونهائياً إذا ما تمسكنا بالعبارات المستخدمة. ويدعو السيد عون إسرائيل، في مرحلة أولى، إلى الانسحاب من خمسة مواقع في جنوب لبنان، معتبراً أن هذا الوجود «يعرقل انتشار الجيش حتى الحدود»⁹⁹. ولعل الرئيس اللبناني، حرصاً منه على عدم استفزاز حزب الله الذي يبدي أصلاً قليلاً جداً من التقبل لاحتمال نزع سلاحه، يفضل إرجاء موضوع التطبيع إلى وقت لاحق. وإذا نجحت السلطات اللبنانية في إنجاز مشروع نزع سلاح الميليشيا الشيعية، وتمكن البلدان من الاتفاق على تهدئة حدودهما المشتركة، فقد تُطرح مسألة التطبيع على نحو أكثر جدية على جدول أعمال المباحثات بين بيروت وتل أبيب. وهذا على أي حال هو المعنى الذي تتخذه وساطة الولايات المتحدة، التي تحت لبنان، على لسان توم براك، على الاقتداء بسوريا عبر إجراء مباحثات مع إسرائيل، وإلا فاته قطار الشرق الأوسط الجديد¹⁰⁰.

وقد يمر توسيع دائرة التطبيع أيضاً عبر دمشق. فتصريح توم براك الذي مفاده أن أحمد الشرع أبلغه بأنه «لا يكره إسرائيل ويريد السلام على هذه الحدود»، وإن كان يستدعي الحذر بسبب الماضي الجهادي للرئيس الجديد، يبدو منسجماً مع سياسة الانفتاح التي ينادي بها سيد دمشق. غير أن إسرائيل أوضحت، عبر وزير خارجيتها السيد جدعون ساعر، أن هضبة الجولان «ستبقى جزءاً لا يتجزأ من دولة إسرائيل»، وهو ما لا يبدو أنه يشكل رفضاً قاطعاً في نظر السيد الشرع. ويرى مالك العبد، رئيس تحرير مجلة «Syria in Transition» الذي نقلت عنه صحيفة «لوريان لوجور» (L'Orient-Le Jour)، في ذلك مؤشراً على أن صيغة «الأرض مقابل السلام» آخذة في التلاشي لصالح معادلة جديدة: «السلام مقابل السلام». فأحمد الشرع يدرك جيداً أن نزاعاً مع إسرائيل سيضر بسعيه إلى الشرعية الدولية. ثم إنه يريد، من خلال التوصل إلى اتفاق في هذا الشأن، أن يتحصن من أي تدخل إسرائيلي جديد لصالح الطائفة الدرزية، وهو تدخل من شأنه حتماً أن يهدد التجربة المحفوفة بالمخاطر للتعايش بين مختلف الطوائف في سوريا. ويمكن بذلك معالجة وضع الطائفة الدرزية عبر تفويض المهمة الأمنية إلى فصائل محلية أو

⁹⁷ <https://www.thearabweekly.com/barrack-sees-reshaped-middle-east-key-turkish-role-after-iran-israel-war>
⁹⁸ <https://www.cnews.fr/monde/2025-07-11/israel-le-president-libanais-exclut-toute-normalisation-avec-letat-hebreu-171>

⁹⁹ https://www.lemonde.fr/international/article/2025/07/11/le-liban-exclut-toute-normalisation-de-ses-relations-avec-israel-mais-se-prononce-en-faveur-de-la-paix_6620684_3210.html

¹⁰⁰ <https://libanews.com/tom-barrack-au-liban-dialogue-opportunit-e-et-limites-americaines/>

عبر اعتماد مقاربة فيدرالية. وهذه الأسباب المختلفة تدفع الرئيس السوري إذن إلى النظر في تقارب مع إسرائيل.

غير أن أحمد الشرع لا يغفل أن مثل هذا المشروع سيضعفه في نظر العناصر المتشددة في ائتلافه، المعارضة بشدة لهذه الفكرة، وكذلك في نظر جزء من شعبه يربط أي تطبيع بمسألة هضبة الجولان. لذا يفكر الرئيس السوري في عملية تطبيع على مراحل، تكون بطبيعتها أقل مباشرة. وسيتعلق الأمر أولاً باتفاق أمني يهدف إلى إعادة العمل باتفاقية فض الاشتباك التي وقّعها إسرائيل وسوريا عام 1974. وكانت هذه الاتفاقية، التي انهارت إثر سقوط الرئيس الأسد، تنشئ منطقة عازلة منزوعة السلاح في هضبة الجولان، إضافة إلى رقابة تتولاها قوات القبعات الزرق التابعة للأمم المتحدة. وإذا كانت استعادة سوريا لهذه الأرض تبدو مستبعدة، فإن الشرع قد يحصل مع ذلك من إسرائيل على «إمكانية الوصول إلى هضبة الجولان لأغراض الاستثمار وحرية التنقل»¹⁰¹. وسيشكل تفعيل هذه الاتفاقية مجدداً خطوة أولى نحو التطبيع.

وقد تتسارع المفاوضات في وقت قريب جداً. فقد صرّح الحاخام الأميركي أبراهام كوبر مؤخراً، بعد أن زار على وجه الخصوص الرئيس السوري الجديد في دمشق مطلع يونيو/حزيران¹⁰²، بأن لقاءً في نيويورك بين أحمد الشرع وبنيامين نتنياهو قد يصبح ممكناً بتدخل من دونالد ترمب¹⁰³. ومن شأن حدث كهذا أن يكرّس النقّس الثاني للتطبيع، وأن يحقّز في الوقت نفسه الرياض، التي استضافت اللقاء الحاسم بين ترمب والشرع في مايو/أيار الماضي، على اتخاذ مبادرة مماثلة. وهو ما يقرب دونالد ترمب من هدفه المعلن المتمثل في نيل جائزة نوبل للسلام. وسيكون اعتماد خطة ترمب الخاصة بالصراع بين إسرائيل وحماس وتنفيذها عاملاً حاسماً في استئناف عملية التطبيع.

شرق أوسط متخلص من الإسلامية بجميع أشكالها

تتميز البنية الجديدة للسلام في الشرق الأوسط، في أعقاب تسوية الصراع في غزة، بأنها تُنشئ تحالفاً بالغ القوة يلتف حول إسرائيل، التي أصبحت قوة إقليمية كبرى، والدول السنية التي تجمعها مصالح متطابقة: هزيمة إيران الإسلامية الشيعية بوصفها قوة إقليمية، والقضاء على الإرهاب الإسلامي الذي يحصد من الأرواح في الدول العربية أكثر مما يحصده في الغرب.

¹⁰¹ <https://www.lorientlejour.com/article/1467442/normalisation-avec-israel-chareh-pret-a-sauter-le-pas-.html>

¹⁰² <https://www.jpost.com/opinion/article-859815>

¹⁰³ https://www.timesofisrael.com/liveblog_entry/rabbi-who-met-syrias-sharaa-says-meeting-with-netanyahu-possible-wit-h-trumps-help/

تحييد الأذرع الإيرانية الإرهابية

النقطة الأولى: ضمان نزع سلاح حزب الله

على الرغم من أن حزب الله قد هُزم أمام إسرائيل ودُعي إلى نزع سلاحه، فإنه لا يزال يحتفظ بقاعدة شعبية واسعة، كما أظهرت الانتخابات البلدية التي جرت في مايو/أيار في لبنان. فرغم تراجع نسبة المشاركة مقارنة بالانتخابات البلدية لعام 2016 (37% مقابل 48%)، فازت لوائح تحالف أمل-حزب الله بـ102 من أصل 272 مجلساً بلدياً متنافساً عليها منذ الجولة الأولى في محافظتي الجنوب والنبطية¹⁰⁴. وإذا كان بعض المحللين يشيرون إلى غياب المعارضة في عدد كبير من هذه البلديات، باستثناء الشيوعيين أو العائلات، فإن هذه النتائج الانتخابية تبقى كاشفة لما قد يحدث في الانتخابات التشريعية المقرر إجراؤها عام 2026.

وفي هذا الصدد، يبرز نزع سلاح الجماعة في أقرب الآجال بوصفه أولوية. فجوزيف عون، الرئيس اللبناني المنتخب في 9 يناير/كانون الثاني الماضي، يدرك أهمية هذا الهدف ويدعو إلى حصر السلاح بيد الدولة اللبنانية. وفي حين يطالب جزء من المجتمع الدولي، ولا سيما الولايات المتحدة، بإلحاح بنزع السلاح، يرغب الرئيس في التوصل إلى حل سلمي لا يوحي بأنه مفروض من الخارج، تفادياً لأي خطر حرب أهلية. وقد طُرحت فكرة دمج مقاتلي الميليشيا الشيعية في القوات الحكومية، على غرار مشروع التوحيد الذي تنتهجه السلطة السورية الجديدة.

ورغم إقرار إدارة ترمب بأن السلطات اللبنانية الجديدة أكثر فاعلية من سابقتها، فإنها تواصل الضغط للحصول على نزع كامل لسلاح الميليشيا في أسرع وقت. ومن جهته، يتذرع حزب الله بالضربات الإسرائيلية على منشآته لرفض إلقاء السلاح. وفي الوقت الراهن، يقدر الجيش الإسرائيلي أن ما بين 80 و85% من القدرة الضاربة لحزب الله قد دُمر¹⁰⁵. غير أن الجماعة لا تزال قادرة على تسيير دوريات أو إطلاق صواريخ بشكل متفرق. ويتولى الجيش اللبناني نزع السلاح الفعلي للجماعة الإرهابية بدعم من الولايات المتحدة. وهذا الدعم المالي حيوي للجيش اللبناني الذي لا يملك السيولة اللازمة لدفع رواتب جنوده، ويعاني أيضاً من نقص في التجهيزات. كما ذكر رئيس الوزراء نواف سلام بأن حكومته لن تتمكن من تحقيق جميع أهدافها المتعلقة بنزع السلاح قبل موعد الانتخابات التشريعية المقبلة.

¹⁰⁴ <https://www.lorientlejour.com/article/1461706/victoire-du-hezbollah-dans-plusieurs-localites-du-liban-sud.html>

¹⁰⁵ <https://www.i24news.tv/fr/actu/israel/artc-israel-le-commandant-du-front-nord-estime-que-le-hezbollah-a-perdu-plus-d-e-80-de-sa-capacite-de-frappe>

غير أن مستقبل مشروع نزع السلاح هذا يبقى غامضاً بسبب موقف حزب الله، الذي يرفض فرضية إلقاء السلاح، بل وحتى تحديد جدول زمني يتيح بلوغ هذا الهدف. وترى الجماعة الإرهابية أن الضربات الإسرائيلية التي تستهدف قواتها تشكل تهديداً أمنياً لبلد الأرز. أما الجيش الإسرائيلي فيؤكد أنه لا يستهدف سوى موارد الميليشيا اللبنانية. ويلخص نعيم قاسم موقف حزب الله على هذا النحو: «التهديد لن يجعلنا نستسلم»¹⁰⁶.

أما توم براك فيشدد على أن «لبنان لا يملك وقتاً غير محدود» لنزع سلاح حزب الله، مذكراً بأن «الجدول الزمني لتفكيكه تحدده إسرائيل، لا واشنطن». غير أن الدبلوماسي ذا الأصول اللبنانية يمارس ضغطاً لطيفاً على السلطات اللبنانية بقوله إن «الدعم الأميركي يفترض إدراك ضرورة التغيير، قبل فوات الأوان»¹⁰⁷.

ويبدو من الأولويات تأمين نزع السلاح هذا وضمان احتكار الدولة للشأن العسكري في أسرع وقت، تفادياً لسعي حزب الله مجدداً إلى الاضطلاع بهذا الدور مستفيداً، على سبيل المثال، من حملة انتخابية تشريعية ظافرة عام 2026. وفكرة دمج عناصر الميليشيا في الجيش الحكومي مسار مثير للاهتمام، لكنه يطرح شكوكاً على صعيد القيادة شبيهة بتلك التي يواجهها أحمد الشرع في سوريا. ويجب أن يتواصل الدعم الاقتصادي الغربي بشكل مستدام لتمكين الجيش اللبناني من مواصلة تفكيك منشآت الجماعة، مع تعزيز صفوفه وترسانته.

وتزداد مسألة القدرات العسكرية للجيش اللبناني ونزع سلاح حزب الله أهمية في ظل تداول شائعات مفادها أن واشنطن وتل أبيب اتفقتا مطلع يونيو/حزيران على إنهاء عمليات قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان (اليونيفيل). ورغم أن هذه القوة لم تنجح يوماً في احتواء التهديد الذي يمثله حزب الله، فإن عدم تجديد مهمتها سيجعل من الجيش اللبناني الحصن الوحيد في وجه عودة قدرة حزب الله على الأذى. وتؤكد بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية أن الميليشيا الشيعية قد شرعت فعلاً في إعادة بناء قدراتها العسكرية¹⁰⁸. وقد عززت هذه المخاوف التصريحات الأخيرة لتوم براك، الذي أكد أن «اللبنانيين يعتقدون أن حزب الله ليس في مرحلة إعادة بناء. إنهم في مرحلة إعادة بناء». وصرّح محمد فنيش، أحد المسؤولين السياسيين في حزب الله، مؤخراً بأن مالية الجماعة في حالة «طبيعية» تسمح لها بمواصلة أنشطتها الطبية والاجتماعية، وبأن عمل جناحها المسلح لم يتأثر¹⁰⁹.

¹⁰⁶ <https://www.lefigaro.fr/international/le-chef-du-hezbollah-exclut-de-capituler-et-rendre-les-armes-sous-la-menace-d-israel-20250706>

¹⁰⁷ <https://www.lorientlejour.com/article/1470662/tom-barrack-le-calendrier-du-desarmement-est-fixe-par-tel-aviv-pas-washington-.html>

¹⁰⁸ <https://www.lorientlejour.com/article/1464791/le-hezbollah-est-il-en-train-de-reconstruire-ses-capacites-militaires-.html>

¹⁰⁹ https://www.washingtonpost.com/world/2025/09/27/lebanon-hezbollah-israel-nasrallah/de7f8906-9b57-11f0-8ce3-5a1bc3053a693_story.html

وبالتوازي مع ذلك، قد يتقدم المجتمع الدولي، الذي جعل رفع السرية المصرفية اللبنانية شرطاً لا غنى عنه لمشاركته في إنعاش اقتصاد البلاد، بمطالب أخرى تهدف إلى ضمان تمثيل فعلي لمختلف القوى السياسية في لبنان. فمن شأن تحسين حضور جميع الأحزاب وتوفير حماية فعالة لأعضائها أن يكون وسيلة جيدة لتعزيز المنافسة وتنوع العرض السياسي على حساب حزب الله، تفادياً لاستفادة الجماعة الموالية لإيران من غياب للمعارضة شبيه بذلك الذي صبّ في صالحها خلال الانتخابات التشريعية والبلدية الأخيرة.

النقطة الثانية: تحديد التهديد الحوثي

بالنظر إلى التوثيق الأخير للروابط الاقتصادية بين الأميركيين ودول الخليج، الذي تجسد في جولة دونالد ترمب المربحة جداً في الشرق الأوسط، يمكن للولايات المتحدة أن تحت المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة على إعادة تشكيل التحالف الذي كان قد حاول منع وصول الحوثيين إلى السلطة عام 2014. فالأمر يتعلق بأمن التجارة البحرية العابرة للبحر الأحمر.

وبالتوازي مع ذلك، يواجه الحوثيون أيضاً اعتراضات صادرة عن فصائل منافسة. وتمنحهم ترسانتهم العسكرية المثيرة للإعجاب، ودعم حزب الله وإيران لهم، ومنظومة اقتصادية تستفيد إلى حد كبير من تهريب التبغ والوقود والمواد الخام، تفوقاً لوجستياً أكيداً على الجماعات الأخرى. وفي ذروة القصف الأميركي على مواقعهم قبل التوصل إلى وقف لإطلاق النار، كانت الجماعات المنافسة تدرس فرضية شن هجوم بري باتجاه معقل استراتيجي مثل مدينة الحديدة الساحلية. وأشارت مصادر إلى أن هذا الهجوم سيحظى بدعم الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، اللتين ستكونان قادرتين على توفير نحو 150 ألف مقاتل ينضمون إلى صفوف الفصائل المناهضة للحوثيين. أما الحكومة اليمنية المعترف بها دولياً فتمتلك من جهتها نحو 300 ألف رجل. ومن ثم سيكون مثل هذا التحالف متفوقاً عددياً على الحوثيين. غير أن فرص انتصاره تبدو متضائلة بفعل عوامل عدة. فأولاً، لا يتمتع جنود الحكومة بالتجهيزات نفسها التي يمتلكها الإرهابيون، إذ يحوز هؤلاء ترسانة تجعل الأمم المتحدة تصفهم بأنهم تنظيم عسكري قوي¹¹⁰. ثم إن الحوثيين يتمتعون بميزة الأرض، إذ يوفر شمال غرب اليمن تضاريس جبلية أتيح للمتمردين الوقت الكافي لاحتلالها وتحصينها بالدفاعات منذ عام 2014.

وإذا كانت حملة القصف التي شنتها إدارة ترمب الثانية قد بدت فرصة سانحة للفصائل المنافسة للحوثيين، فإن وقف إطلاق النار الأخير قد أغلقها. فاختلال موازين القوى بلغ حداً لا يمكن معه للقوات

¹¹⁰ <https://www.wsj.com/world/middle-east/how-the-houthis-went-from-ragtag-rebels-to-global-threat-5aa268d0>

الحكومية التعويل على النجاح إلا من خلال حملة قصف واسعة النطاق مقرونة بإحياء التحالف المدعوم من دول الخليج. كما سيكون مسار إضعاف داعميهم الماليين الدوليين وجيهاً.

ويمكن أن تثبت فاعليتها في هذا الاتجاه عقوبات جديدة تستهدف إيران، أو إجراءات دبلوماسية ضد عُمان، مهندسة اتفاق وقف إطلاق النار بين الحوثيين والأميركيين. فلسطين عُمان، التي تمتلك قناة اتصال مميزة مع إيران والحوثيين وكثيراً ما تقدم نفسها وسيطاً متى تعلق الأمر بالتفاوض مع واشنطن، تقيم علاقات ملتبسة مع الحوثيين وقادتهم. فعُمان، المشتبه في أنها تسهّل إيصال بعض الأسلحة وكذلك السيولة إلى الجماعة، تستضيف قادة الحوثيين وتوفر لهم منصة للقاء الممثلين الإيرانيين. كما يتيح النظام المصرفي العُماني، المرتبط بالنظام المالي الدولي، للحوثيين النفاذ إلى هذا النظام، ومن ثم إصدار أوامر بعمليات تحويل الأموال.

ووحده الجمع بين هذه الاستراتيجيات، المالية والعسكرية، كفيل بأن يمنح التحالف فرصاً حقيقية للانتصار. ويمكن أيضاً التماس دعم أطراف أخرى، مثل مصر التي تتعرض مصالحها الاقتصادية لتهديد خطير جراء اعتداءات الحوثيين في البحر الأحمر. وسيتعين بعد ذلك التأكد من أن التحالف المنتصر سيعمل على تأمين التجارة البحرية قبالة سواحل اليمن، وسيحرص كذلك على إنهاء الاقتتال الداخلي وجعل اليمن عاملاً لتحقيق الاستقرار الإقليمي.

وعلى المدى الأقصر، يمكن للإدارة الأميركية أن تنظر في توسيع مكاسب وقف إطلاق النار الذي أبرمته مع الحوثيين بصورة غير مباشرة لتشمل السفن الإسرائيلية. وقد تتمثل الفكرة مثلاً في الطلب من البحرية الأميركية مرافقة بعض السفن الإسرائيلية التي تمر بالقرب من السواحل اليمنية لمنع أي اعتداء من جانب الحوثيين. ومن شأن ذلك أن يحرم إيران من ذراع تُلحق أضراراً اقتصادية فادحة بإسرائيل.

النقطة الثالثة: حسم مستقبل العراق

بسبب عدائه لجمهورية إيران الإسلامية¹¹¹، ظل الرئيس العراقي صدام حسين لفترة طويلة يُعدّ حليفاً للولايات المتحدة. وبدأت العلاقة تتعكر حين غزت قوات صدام حسين الكويت عام 1990، ما دفع تحالفاً دولياً إلى التدخل لإرغامه على الانسحاب. وفي أعقاب ما عُدّ حرب الخليج الأولى، فُرضت على بغداد عقوبات مالية قاسية وأُخضعت لإجراءات رقابة تهدف إلى التأكد من أن النظام لا يطور أسلحة كيميائية¹¹².

¹¹¹ خاض البلدان حرباً استمرت من 1980 إلى 1988.

¹¹² <https://www.bbc.com/afrique/monde-65017635>

وفي عام 2003، سيقّر الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش غزو العراق للإطاحة بصادم حسين، المشتبه في دعمه لتنظيم القاعدة، والأهم في امتلاكه ترسانة كبيرة من أسلحة الدمار الشامل تشمل أسلحة كيميائية وبيولوجية. وقد بُرّر شن هذه «الحرب الوقائية» بضرورة منع بغداد من استخدام هذا المخزون، فيما كان جورج دبليو بوش يؤكد أن النظام «قادر على شن هجوم كيميائي أو بيولوجي في غضون 45 دقيقة». غير أن الأمم المتحدة والولايات المتحدة لن تنجحا خلال الحرب في جمع أدلة تدعم هذه الأطروحة. وسيتبين أن العناصر التي قدمتها حكومة توني بليز البريطانية لتبرير هذا الغزو شابتها «أخطاء»، كما سيعترف رئيس الوزراء العمالي الأسبق¹¹³ الذي أثقله نشر تقرير تشيلكوت عام 2016¹¹⁴.

وفي عام 2011، أعلن باراك أوباما انتهاء الحرب التي خاضتها قواته في العراق، مكرّساً بذلك انسحاب 39 ألف أميركي كانوا موجودين على الأرض العراقية. وعلى الرغم من إقراره بأن فقدان 4400 جندي خلال هذا الصراع يمثل «ثمناً باهظاً»، سيؤكد الرئيس الديمقراطي أن الولايات المتحدة تركت وراءها «دولة ذات سيادة، مستقرة، معتمدة على ذاتها، بحكومة تمثيلية انتخبها شعبها»، مشيداً في السياق نفسه بـ«إنجاز استثنائي استغرق تسع سنوات»¹¹⁵. ووفقاً لمعهد واتسون للشؤون الدولية والعامّة (Watson Institute for International & Public Affairs)، دفع المدنيون العراقيون ثمناً باهظاً جداً في هذا الصراع وتبعاته. إذ تقدّر دراسة أجراها المعهد، تأخذ في الحسبان الآثار المتوسطة والطويلة الأمد للحرب (شح المياه، الأمراض...)، أن ما بين 186,694 و210,038 مدنياً عراقياً لقوا حتفهم بين مارس/ آذار 2003 ومارس/ آذار 2023¹¹⁶. وخلال السنوات التسع للوجود الأميركي، يبلغ هذا الرقم 100 ألف ضحية. ومن الناحية المالية، يُقدّر أن كلفة الغزو بالنسبة إلى الولايات المتحدة قد تبلغ 6 تريليونات دولار بحلول عام 2053، مع احتساب الفوائد المرتبطة بتمويل الصراع على وجه الخصوص¹¹⁷.

وقد ألحق الإخفاق الأميركي في العراق ضرراً دائماً بصورة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، في الوقت الذي ترك فيه البلاد في مواجهة عدم استقرار ملازم لكل مرحلة تعقب النزاعات. وقد شكل هذا الوضع أرضاً خصبة لظهور تنظيم الدولة الإسلامية. فخلافاً لجماعات إرهابية إسلاموية أخرى مثل تنظيم القاعدة، كان لدولة العراق الإسلامية، التي ستصبح الدولة الإسلامية في العراق والشام اعتباراً من عام 2013 ثم الدولة الإسلامية، هدف يتمثل في الغزو الإقليمي من أجل إقامة خلافة وتطبيق الشريعة فيها.

¹¹³ https://www.bfmtv.com/societe/les-mensonges-qui-ont-change-le-cours-de-l-histoire-les-supposees-armes-de-destruction-massive_AN-202108130001.html

¹¹⁴ <https://www.theguardian.com/politics/live/2016/jul/06/chilcot-report-live-inquiry-war-iraq>

¹¹⁵ <https://www.france24.com/fr/20111214-obama-retrait-armee-soldats-etats-unis-guerre-irak>

¹¹⁶ <https://watson.brown.edu/costsofwar/figures/2021/WarDeathToll>

¹¹⁷ <https://www.latribune.fr/actualites/economie/international/20130314trib000754033/6.000-milliards-de-dollars-le-cout-total-de-la-guerre-en-irak.html>

وفي عام 2014، سيستولي داعش على مدينتي الرقة في سوريا والموصل في العراق. وفي 29 يونيو/حزيران، أعلن أبو بكر البغدادي نفسه خليفة واتخذ اسم إبراهيم. واختيار لقب الخليفة ليس اعتباطياً، إذ يدل على خليفة النبي محمد، ويمنح حامله دور قائد ديني وعسكري تمتد سلطته على مجمل جماعة المسلمين (أو «الأمة»). وفي 5 يوليو/تموز من العام نفسه، سيدعو البغدادي جميع المسلمين إلى الخضوع لسلطته في كلمة ألقاها من جامع النوري في الموصل، وهو مكان مرتبط رمزياً بالجهاد¹¹⁸. وفي مقطع مصور بعنوان «نهاية سايكس-بيكو»، أعلن تنظيم الدولة الإسلامية عزمه على إلغاء حدود «العراق والأردن ولبنان، وجميع البلدان حتى القدس»، في مسعى لرفض القوميات المختلفة، والتراجع عن تقسيم الإمبراطورية العثمانية المنهارة، وإقامة إمبراطورية إسلامية¹¹⁹. وهذا المكوّن الإقليمي، بل والتاريخي، يميز داعش عن جماعات إرهابية أخرى لا تطمح إلا إلى نشر التهديد الجهادي على أوسع نطاق عالمي ممكن.

وسيتير التقدم الإقليمي لداعش قلق المجتمع الدولي الذي ردّ بتشكيل تحالف تقوده الولايات المتحدة ويضم كثيراً من الدول الأوروبية وأستراليا وكندا والأردن وقطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية. وعند تأسيسه، كانت المناطق الخاضعة لداعش تمثل 60 ألف كم² من الأراضي العراقية والسورية، إضافة إلى 185 ألف كم² من الصحراء¹²⁰. وسي تراجع تنظيم الدولة الإسلامية تدريجياً أمام قوات التحالف، ليفقد مدينتي الرقة والموصل منذ عام 2017. وسيخسر داعش خلافته المادية في مارس/آذار 2019 مع سقوط الباغوز، البلدة السورية الواقعة على الحدود العراقية. وسيقتل خليفة التنظيم المعلن ذاتياً على يد القوات الخاصة الأميركية في 27 أكتوبر/تشرين الأول 2019.

ورغم أن الجماعة الإرهابية قد أضعفت إلى حد كبير بفعل التدخل الدولي وخسارة الخلافة، فإن جهاديين لا يزالون ينشطون في العراق، حيث تشكل قدرتهم على الأذى خطراً أمنياً كبيراً في محيط بغداد، وإن كانوا يصطدمون فيه بفاعلية الجيش العراقي والبيشمركة¹²¹، وكذلك الميليشيات الشيعية¹²². والجهاديون أشد خطراً بكثير في محافظات كركوك وصلاح الدين ونيوى. بل إن المنطقة الواقعة بين هذه المحافظات الثلاث تُلقَّب بـ«مثلث الموت». وينجح قدامى مقاتلي داعش المتحصنون

¹¹⁸ https://www.lemonde.fr/moyen-orient-irak/article/2017/06/21/la-grande-mosquee-al-nouri-de-mossoul-detruite_5149064_1667109.html

¹¹⁹ <https://www.lesclesdumoyenorient.com/L-Etat-islamique-en-cartes.html>

¹²⁰ <https://www.la-croix.com/international/daesh-du-califat-a-la-chute-de-l-etat-islamique-dix-dates-cles-20240628>

¹²¹ البيشمركة هم الحرس الإقليمي لإقليم كردستان العراق.

¹²² <https://www.lesclesdumoyenorient.com/Ou-en-est-l-Etat-islamique-au-Levant-1-2-Une-organisation-toujours-tres-acti-ve.html>

فيها تدريجياً في التجنيد وتعزيز أعدادهم¹²³، ما يُبقي شبح عودة تنظيم الدولة الإسلامية ماثلاً على خلفية فك ارتباط التحالف الدولي.

وتشكل الميليشيات الشيعية العراقية مصدراً آخر لعدم الاستقرار في البلاد. فمُنذ سقوط الموصل في يد داعش عام 2014، أصدر آية الله علي السيستاني¹²⁴ فتوى¹²⁵ وفي أعقاب هذه الفتوى، انضم عراقيون من مختلف الطوائف والأصول العرقية إلى القتال ضد داعش، بالالتحاق بميليشيات قائمة أو بتأسيس ميليشيات جديدة. وكان بعض هذه الميليشيات قد قاتل من قبل القوات الأميركية وتنظيم القاعدة على حد سواء. وأقوى هذه الميليشيات ذات انتماء شيعي، وهو ما يعني صلة قرب قوية بإيران. وكما يلخص أحد المقاتلين الذي حاورته صحيفة «لو جورنال دو ديماناش» (JDD): «القيادة العراقية، لكن إخواننا في إيران يقدمون لنا كل نصائحهم»¹²⁷.

وبعد دحر تنظيم الدولة الإسلامية، اكتسبت الميليشيات قوة جعلت الحديث يدور عن «دولة داخل الدولة». فكما تكشف صحيفة «لوموند»، تحظى هذه الميليشيات بدعم سياسي، عبر نواب بل وحتى موظفين في الوزارات، وإعلامي في آن واحد¹²⁸. وتنضوي مجمل الميليشيات في هيئة الحشد الشعبي التي أنشأها رئيس الوزراء آنذاك، السيد نوري المالكي، عام 2014، بهدف الإشراف قدر الإمكان على تصرفاتها، مع تزويدها بالأسلحة والدعم المالي. ورغم أن الحكومة تمارس سلطة نظرية على هذه الجماعات المسلحة، فإن هذه الأخيرة تميل إلى التصرف خارج الإطار الحكومي¹²⁹. وقد عرفت طهران كيف تستغل رغبة الطائفة الشيعية في العراق تجاه السنة لترسيخ نفوذها على معظم هذه الجماعات المسلحة.

وأبرز الميليشيات هي التالية:

- **منظمة بدر:** تضم 20 ألف رجل، وتعود جذورها إلى عام 1982، في بداية الحرب بين إيران والعراق. وهذه المنظمة شبه العسكرية، التي تمتلك حزبها السياسي، هي أقدم نراع عراقية لطهران.
- **جيش المهدي:** يقوده مقتدى الصدر، وهو موجود منذ عام 2003. ورغم أنه ممول من إيران، فإنه ليس أكثر أذرعها ولاءً، ما يدفع نظام الملالي إلى أن يأخذ عليه أجندته القومية.

¹²³ https://www.monde-diplomatique.fr/2021/12/PERPIGNA_IBAN/64139

¹²⁴ آية الله علي السيستاني هو أعلى مرجعية في الإسلام الشيعي في العراق.

¹²⁵ الفتوى رأي يصدره مفتي، أي عالم دين مسلم، في صورة استشارة فقهية بشأن مسألة تتعلق بتفسير الشريعة.

¹²⁶ <https://podcasts.ox.ac.uk/gods-man-iraq-life-and-leadership-grand-ayatollah-ali-al-sistani>

¹²⁷ <https://www.lejdd.fr/International/En-Irak-dans-les-coulisses-des-milices-chiites-836257-3147359>

¹²⁸ https://www.lemonde.fr/international/article/2020/12/31/en-irak-l-emprise-des-milices-chiites_6064924_3210.html

¹²⁹ <https://www.amnesty.be/IMG/pdf/mde1453862017french.pdf>

- **كتائب حزب الله:** ميليشيا مكرسة بالكامل ل طهران، تأسست عام 2007 بدفع من قائد الحرس الثوري الإيراني قاسم سليمان، لتعويض الاستقلالية المفرطة لرجال الصدر. ويقودها منذ عام 2020 أحمد محسن فرج الحميداوي.
- **عصائب أهل الحق:** تشكلت عام 2006 إثر انشقاق في صفوف عناصر جيش المهدي، ولها حزبها السياسي الخاص، «الصادقون».
- **كتائب سيد الشهداء:** أسسها أبو مصطفى الشيباني عام 2013، وهي منبثقة عن كتائب حزب الله.

ومنذ عام 2018 وانسحاب الولايات المتحدة من الاتفاق النووي الإيراني، عبأت إيران هذه الميليشيات المختلفة في إطار «محور المقاومة» لاستهداف المصالح الأميركية في الشرق الأوسط. ويتبين أنها تكاد تكون محصنة إزاء توجيهات الحكومة العراقية، وتستجيب أولاً للملاي الإيرانيين. فقبل مقتله بضربة أميركية عام 2020، كان أبو مهدي المهندس، الذراع اليمنى العراقية لقاسم سليمان، يُعدّ «رسول إيران ومبعوثها العراقي»¹³⁰.

وبعد سقوط داعش والانسحاب من الاتفاق النووي الإيراني، استعانت طهران بالميليشيات الشيعية لنقل معدات إلى أذرعها الأخرى، كما استهدفت هذه الميليشيات المصالح الأميركية على الأرض العراقية. ففي عام 2019، تعرضت واشنطن لهجمات عدة على جنودها أو دبلوماسيين نسبتها إلى كتائب حزب الله، الذراع الوفية ل طهران. وفي العام نفسه، أسفر هجوم صاروخي على قاعدة في شمال العراق عن مقتل متعاقد أميركي¹³¹. ورداً على ذلك، أدى القصف الأميركي على منشآت كتائب حزب الله إلى مقتل 25 مقاتلاً.

«لقد جعل سليمان من قتل الأبرياء شغفه المقيت». بهذه العبارات رحّب الرئيس ترمب بمقتل قاسم سليمان، الذي قُتل بضربة صاروخية أميركية. وكانت واشنطن، التي اتهمت سليمان بالتحضير لـ «عمل واسع النطاق»، ترى بذلك أنها «أوقفت حرباً»¹³². ورغم أن الضربة كانت قاسية على الذراع الإيرانية، فإن المصالح الإقليمية الأميركية ظلت تتعرض لهجمات منتظمة. فمن أكتوبر/تشرين الأول 2023 إلى يناير/كانون الثاني 2024، أحصي أكثر من 140 هجوماً بالمسيّرات أو بالصواريخ استهدفت الجنود الأميركيين أو جنود التحالف¹³³. وكانت واشنطن ترد بحملات قصف ألحقت أضراراً جسيمة بمواقع

¹³⁰ <https://www.understandingwar.org/backgrounders/leadership-and-purpose-iraq's-popular-mobilization-forces>

¹³¹ https://www.lemonde.fr/international/article/2019/12/30/risque-d-escalade-entre-les-etats-unis-et-les-milices-chiites-e-n-irak_6024397_3210.html

¹³² <https://www.europe1.fr/international/assassinat-du-general-soleimani-trump-dit-avoir-agi-pour-arreter-une-guerre-pas-pour-en-commencer-une-3940963>

¹³³ <https://www.france24.com/fr/moyen-orient/20240123-irak-les-États-unis-frappent-contre-des-groupes-pro-iran-en-rep-résailles-à-des-attaques>

ميليشيا كتائب حزب الله الشيعية. وفي يناير/كانون الثاني 2024، قتلت هذه الميليشيا نفسها 3 عسكريين أميركيين في الأردن¹³⁴. وبالتوازي مع ذلك، شنت الميليشيات الشيعية في العراق هجمات باتجاه إسرائيل منذ منتصف أكتوبر/تشرين الأول 2023. ورغم أنها بقيت على الهامش خلال حرب الـ12 يوماً، يرى الباحث حيدر الشاكري، الذي نقلت عنه صحيفة «لوريان لوجور»، في ضبط النفس المؤقت لهذه الجماعات «حساباً تحركه الرغبة في الحفاظ على النفوذ أكثر مما تحركه الرغبة في فتح جبهة جديدة». وكما يشدد السيد الشاكري، فإن الميليشيات «تفتقر إلى القدرات العسكرية والدعم الشعبي والبنية الموحدة». ومن جهة أخرى، تؤكد الميليشيات المنضوية في «المقاومة الإسلامية في العراق» أنها لن تتخلى عن إيران. وقد صرّح أحد مسؤوليها بأن «ثمة لحظة يجب فيها أن يبقى السيف في غمده، لكن ذلك لا يعني التخلي عن السلاح».

النقطة الرابعة: منع طهران من إعادة تسليح ميليشياتها

في الوقت الذي قُطع فيه رأس حزب الله وبات في طريقه إلى نزع السلاح، وتجد حماس نفسها محاصرة من الجيش الإسرائيلي، يبدو أن الحوثيين وحدهم يحتفظون بقدرة على الإضرار بمصالح إسرائيل وأمنها. غير أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا الضرر اقتصادي بصورة شبه حصرية، إذ إن الهجمات التي يشنها المتمردون اليمنيون، على غرار الهجمات الإيرانية، تصطدم بالقبة الحديدية الإسرائيلية وتتدخل حلفاء إسرائيل. وإيران، التي كشفت في هذه المناسبات عن تأخر عسكري كبير مقارنة بإسرائيل، باتت اليوم في موقف ضعف؛ وهي خلاصة ينبغي تنسيبها في ضوء بعض المعطيات الحديثة التي تُظهر أن «محمور المقاومة» لا يزال يتحرك.

فسلسلة من عمليات الضبط التي نفذتها جهات إقليمية مختلفة تُظهر أن إيران تواصل إيصال الأسلحة والذخائر إلى بعض أذرعها. ففي اليمن، اعترضت الحكومة المعترف بها دولياً وبعض أعضاء التحالف الداعم لها، ومنهم قوات المقاومة الوطنية، شحنة بحرية كبيرة من الصواريخ الإيرانية كانت متجهة إلى الحوثيين في 16 يوليو/تموز الماضي. وكان الحديث يدور عن 750 طناً من صواريخ كروز والصواريخ المضادة للسفن والصواريخ المضادة للطائرات، وكذلك الطائرات المسيّرة. ويواصل الحوثيون شن هجمات جوية على الدولة العبرية، كما يشهد على ذلك اعتراض صاروخ باليستي أُطلق من اليمن باتجاه مطار بن غوريون في 21 يوليو/تموز.

¹³⁴ <https://www.la-croix.com/international/mort-de-trois-soldats-americains-en-jordanie-joe-biden-au-defi-de-riposter-202>

ومن جهة أخرى، توجه إسماعيل قآني، قائد فيلق القدس الذي اعتُقد لبعض الوقت أنه قُتل، إلى العراق في 17 يوليو/تموز للقاء مختلف الميليشيات التي تدور في فلك نظام الملالي. وأشار إسماعيل قآني إلى هجوم إسرائيلي «وشيك» على هذه الميليشيات، فحذّر قادتها من احتمال اختراق أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية لصفوفها. وإذا كانت الميليشيات العراقية لم تتدخل إلا بصورة هامشية في «حرب الـ12 يوماً»، فإنها أبدت نشاطاً أكبر بكثير مؤخراً، إذ استهدفت على وجه الخصوص نحو ستة مواقع نفطية تديرها شركات أميركية في كردستان العراق، بحسب حكومة إقليم كردستان. كما تعرضت أهداف أخرى، مثل المطارات، لهجمات في المنطقة نفسها.

وأخيراً، ورغم سقوط نظام بشار الأسد، الذي كان يتيح ل طهران إيصال الأسلحة والذخائر إلى حزب الله عبر الأراضي السورية، يبدو أن الملالي لم يتخلوا تماماً عن هذا المسار. ففي يونيو/حزيران الماضي، أعلنت القوات الحكومية السورية أنها اعترضت قافلة تضم صواريخ مضادة للدروع متجهة إلى حزب الله. ورغم عمليات الضبط التي نفذتها القوات السورية، يبدو من المستحيل مادياً مراقبة الحدود مع لبنان بالكامل، وهي حدود يبلغ طولها نحو 400 كم وتضم أكثر من 130 معبراً للتهريب.

وتُظهر هذه المعطيات المختلفة أن إيران تستغل الهدوء الناتج عن وقف إطلاق النار الذي أعقب حرب الـ12 يوماً لتعزيز ميليشياتها المختلفة، وهو ما يشير بوضوح إلى أنه من السابق لأوانه اعتبار «محور المقاومة» في تراجع لا رجعة فيه. وهو توجه نحو إعادة التسلح لا يدعو إلى التفاؤل بشأن النوايا الحقيقية ل طهران وفرص التوصل إلى صفقة نووية فعالة، وهي فرص تضررت أصلاً إلى حد كبير بسبب المواقف التسوية التي يتبناها نظام الملالي في هذا الملف، وهي نقطة سنتناولها بمزيد من التفصيل لاحقاً.

إقصاء إيران من النادي النووي

هل ستطوي حرب الـ12 يوماً صفحة ما يقرب من نصف قرن من المواجهة عن بُعد، أم أنها لن تكون سوى فصل إضافي من هذا الصراع يمثل الانتقال إلى هجمات مباشرة لم تعد تقتصر على الوساطة عبر الوكلاء؟ هذا هو الرهان الأساسي في الأسابيع المقبلة، والعالم ينتظر بياناً صادراً عن البيت الأبيض أو تغريدة بقلم ساكنه. سقوط وشيك لنظام الملالي؟ وضع راهن يستمر بضع سنوات؟ حدث لا يعني الغرب وفق عقيدة أشد أنصار مدرسة «ماغا» (MAGA) حماساً؟ هذا ما ستحاول السطور التالية تفكيكه.

وتتشكل الهجمات التي شنها الجيش الإسرائيلي في إطار عملية «الأسد الصاعد» (Rising Lion) نجاحاً عسكرياً لا يُنكر. فباستهدافه المنشآت النووية للنظام الإيراني ومواقع تصنيع الصواريخ، كان الجيش الإسرائيلي يعتزم القضاء على البرنامج النووي للملالي. كما استهدفت القوات الإسرائيلية الكفاءات البشرية التي تؤدي دوراً من الطراز الأول في الأجندة النووية الإيرانية، فقتلت كثيراً من العلماء، من بينهم فريدون

عباسي، الرئيس السابق لمنظمة الطاقة الذرية الإيرانية، ومحمد مهدي طهرانجي، رئيس جامعة آزاد الإسلامية. كما استهدف الجيش الإسرائيلي شخصيات عسكرية وسياسية من الصف الأول، من بينها حسين سلامي، قائد الحرس الثوري الإيراني، وأمير علي حاجي زاده، قائد القوة الجوفضائية في الحرس الثوري، وعلي شادمان، المستشار المقرب من آية الله علي خامنئي¹³⁵.

وكان من المستبعد جداً أن تستجيب طهران لمطالبة الرئيس الأميركي السابع والأربعين بـ«استسلام غير مشروط». فبالنسبة إلى نظام وقوده الرئيسي أيديولوجي، كان الانحناء أمام عدوه اللدود، الذي يلقبه بـ«الشیطان الأكبر»، يعني التخلي عن علة وجوده، وفي الوقت نفسه التنازل لعقيدته، وهو موقف عدته السلطات الإيرانية غير مقبول. ثم إن استسلام الملالي كان سيشكل اعترافاً بالضعف أمام شعب أبعد ما يكون عن الاقتناع بقضية الجمهورية الإسلامية.

ورغم أن ذلك لا يروق للجناح المتشدد في تيار «ماغا»، ورغم أن دونالد ترمب يجعل من أولوية عقيدة «أمريكا أولاً» على جميع جوانب السياسة الأميركية، ولا سيما في مجال السياسة الخارجية، سمة مميزة لرئاسته، فإن الملف النووي الإيراني ينطوي على تبعات يبدو أنها تفرض اللجوء إلى حل هجومي. وقد اختار دونالد ترمب في نهاية المطاف حلاً هجومياً يضع حداً قد يكون نهائياً لاستراتيجية التهدة التي تبنتها تباعاً، بنجاح محدود جداً، إدارتا أوباما وبايدن. وبعد أن ترك المراقبين في حيرة بشأن تدخل أميركي محتمل، استهدف ساكن البيت الأبيض المواقع النووية الإيرانية الثلاثة الرئيسية المعروفة، أي نطنز وفوردو وأصفهان، في إطار عملية «مطرقة منتصف الليل» (Midnight Hammer) التي أطلقت يوم الأحد 22 يونيو/حزيران. وفي ليلة الجمعة إلى السبت، كان الأميركيون قد حرصوا مسبقاً على التمويه بإقلاع مجموعة من قاذفات B-2، وهي الطائرة الوحيدة القادرة على إلقاء قنابل GBU-57 أو «خارقة التحصينات» (bunker buster)، باتجاه المحيط الهادئ بهدف عدم إثارة الشكوك الإيرانية. وتتميز قنبلة GBU-57 بأنها لا تنفجر عند ملامستها الأرض، بل تخترق السطح لبلوغ أهداف على عمق يصل إلى 60 متراً. وهي ميزة لا يستهان بها لبلوغ المنشآت النووية تحت الأرض، لكنها لم تكن كافية لتبديد جميع الشكوك في فاعلية مثل هذه الاستراتيجية، ولا سيما تلك التي أبداه البنتاغون¹³⁶ قبل أيام من العملية، إذ يُرجّح أن موقع فوردو يقع على عمق يُقدَّر بين 80 و90 متراً.

وفي الوقت نفسه، كانت مجموعة من سبع قاذفات B-2 Spirit تقترب من الشرق الأوسط بأدنى قدر من الاتصالات، مستفيدة من التزود بالوقود جواً. وقبل أن يدخل سرب القاذفات الأجواء الإيرانية، أطلقت

¹³⁵ https://www.bfmtv.com/international/moyen-orient/israel/infographies-iran-israel-sites-cibles-hauts-grades-et-civils-tu-es-comment-en-sept-jours-les-deux-pays-ont-basculé-dans-la-guerre_GN-202506200049.html

¹³⁶ <https://www.lefigaro.fr/international/conflit-iran-israel-le-pentagone-doute-encore-de-la-capacite-des-bombes-gbu-57-a-detruire-le-site-nucleaire-de-fordo-20250619>

غواصة أميركية دزيتتين من صواريخ كروز من طراز توماهوك بهدف إضعاف الدفاعات الجوية للنظام، فيما كانت مجموعة حماية تطلق نيران تغطية لتحديد التهديدات من نوع أرض-جو. ثم ألقت قاذفات **B-2** أربع عشرة قنبلة **GBU-57**، يزيد وزن كل منها على 13 طناً، على موقعي فوردو ونطنز. أما الموقع الواقع في أصفهان فقد قُصف بصواريخ كروز من طراز توماهوك. وبعد انتهاء العملية، بدأت مجموعة الهجوم «مطرقة منتصف الليل» رحلة العودة باتجاه الولايات المتحدة. ووفقاً للجنرال دان كين، قائد العملية، فإن «أول استخدام عملياتي» لقنبلة GBU-57 ألحق «أضراراً جسيمة» بالمواقع النووية الإيرانية¹³⁷.

وباستثناء رد خجول استهدف قاعدة أميركية في قطر، وهي عملية أبلغت بها الأجهزة الإيرانية الولايات المتحدة مسبقاً، لم يرد المالكي. وتم التوصل إلى وقف لإطلاق النار يوم الثلاثاء 24 يونيو/حزيران، منهياً بذلك الصراع الذي سيُعرف من الآن فصاعداً بـ«حرب الـ12 يوماً». وقد أسفر عن مقتل أكثر من ألف شخص في إيران، وما لا يقل عن 28 ضحية في الجانب الإسرائيلي¹³⁸. أما بخصوص المواقع النووية الإيرانية، فإن المدى الدقيق للأضرار التي ألحقها الهجوم المشترك لواشنطن وتل أبيب لا يزال مجهولاً. ففي الساعات التي أعقبت العملية، رأى الرئيس الأميركي أنها شكّلت «نجاحاً عسكرياً مذهلاً» وأدت إلى تدمير «كامل وشامل» للمواقع الرئيسية في المنظومة النووية الإيرانية. غير أن الواقع يبدو أكثر تعقيداً بسبب عوامل عدة، مثل الاشتباه في أن المالكي نقلوا جزءاً من مخزون اليورانيوم المخصب قبل الضربات، أو المجهول الذي يمثله احتمال وجود مواقع نووية سرية. ونظراً إلى هذه الشكوك، يرى البنتاغون أنه رغم وجود معلومات استخباراتية تشير إلى أن المواقع المستهدفة «دُمّرت بالكامل»، فإن التهديد النووي الإيراني لن يُرجأ إلا لمدة لا تتجاوز عامين¹³⁹.

وهي فترة تمنح مع ذلك دونالد ترمب والغربيين هامشاً من الحرية لتحديد التهديد النووي الإيراني نهائياً. وفي الواقع، وحده الإقصاء النهائي لنظام المالكي من النادي النووي كفيل بالحد على نحو دائم من قدرة رأس الأفعى في «محور المقاومة» على الأذى، وبرزف التهديد الوجودي الذي يمثله حصول طهران على السلاح الذري عن كاهل إسرائيل. ورغم أن المحادثات لم تُستأنف رسمياً بين الوفدين الأميركي والإيراني، فمن المنتظر أن تجري مباحثات بين مختلف الأطراف.

¹³⁷ <https://www.rts.ch/info/monde/2025/article/operation-midnight-hammer-les-details-de-l-attaque-americaine-en-iran-28921676.html>

¹³⁸ <https://www.lefigaro.fr/international/guerre-contre-israel-les-systemes-antiaeriens-endommages-ont-ete-replaces-af-firme-l-iran-20250720>

¹³⁹ <https://www.reuters.com/world/middle-east/iranian-nuclear-program-degraded-by-up-two-years-pentagon-says-2025-07-02/>

وثمة خياران مطروحان الآن: توقيع معاهدة أكثر تقييداً بكثير من خطة العمل الشاملة المشتركة (JCPOA) القاصرة لعام 2015، أو حملة عسكرية جديدة واسعة النطاق، وهو ما لا يستبعده دونالد ترمب إذا تبين أنه «ضروري»¹⁴⁰. فقد كشفت شبكة «إن بي سي نيوز» (NBC News) أن خياراً عسكرياً أكثر طموحاً يمتد على عدة أسابيع كان قد عُرض على السيد ترمب، الذي فضّل مع ذلك عملية «مطرقة منتصف الليل»¹⁴¹. وبانسحابها الحضيف من الاتفاق النووي الإيراني عام 2018، كانت إدارة ترمب الأولى تسلط الضوء على الثغرات الكبيرة في هذا الترتيب. فخطة العمل الشاملة المشتركة، التي أبرمت برعاية باراك أوباما عام 2015، كانت تنطوي على عيوب جوهرية عدة. صحيح أن إيران تعهدت بعدم تجاوز عتبة تخصيب اليورانيوم المقابلة للاستخدام المدني، أي 3.67%، لكن لمدة 15 عاماً فقط. وحُدّد سقف 300 كيلوغرام المفروض على مخزونها من اليورانيوم المخصب للمدة نفسها. أما عمليات التفتيش التي كان يُفترض أن تجريها الوكالة الدولية للطاقة الذرية على المواقع النووية الإيرانية فقد اصطدمت بعدم تعاون السلطات الإيرانية مع مفتشي الوكالة. وفي 12 يونيو/حزيران الماضي، جاء قرار للوكالة الدولية للطاقة الذرية ليؤكد مخاوف المجتمع الدولي، إذ أفاد بأن الوكالة ليست في وضع يسمح لها بتحديد ما إذا كان البرنامج النووي الإيراني «سلمياً حصراً»¹⁴².

ومع أخذ جميع هذه المعطيات في الحسبان، قد يكون الحل الأمثل مزيجاً من الحزم والدبلوماسية. وكما ذكرنا في مقال نُشر على موقع مجلة «Conflits»، يمكن اعتماد استراتيجية طموحة على مراحل عدة¹⁴³. فكان على فرنسا والمملكة المتحدة وألمانيا، بصفتها من الدول الموقعة على خطة العمل الشاملة المشتركة، أن تفعل أولاً ما يُعرف بآلية «سنا بأك» (آلية الزناد). وقد تحقق ذلك الآن منذ قرار مجلس الاتحاد الأوروبي الصادر في 29 سبتمبر/أيلول بإعادة فرض العقوبات. فبموجب خطة العمل الشاملة المشتركة، كان أمام هذه الدول مهلة حتى أكتوبر/تشرين الأول 2025 لإعادة فرض العقوبات المالية التي رُفعت عند إبرام الاتفاق، وبالتالي تعزيز الحظر التجاري الدولي الذي فرضته إدارة ترمب الثانية على إيران. وكان من الضروري تفعيل آلية «سنا بأك» في أقرب وقت.

وفي مرحلة ثانية، يجب فرض معاهدة أكثر تقييداً بكثير على إيران. وستنص على التخلي عن أي برنامج لتخصيب اليورانيوم، حتى لو كان لاستخدام مدني، وتدمير جميع مخزونات اليورانيوم التي يمتلكها النظام، وكذلك مخزونات الصواريخ الباليستية، إذ يمكن أن تُستخدم هذه الأخيرة لتنفيذ هجوم نووي. ويجب أن تخضع جميع مراحل هذه المعاهدة لرقابة مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية، الذين ينبغي

¹⁴⁰ <https://www.euronews.com/2025/07/22/donald-trump-warns-that-us-could-strike-irans-nuclear-sites-again-if-necessar>

¹⁴¹ <https://www.nbcnews.com/politics/national-security/new-us-assessment-finds-american-strikes-destroyed-only-one-t-hree-iran-rcna218761>

¹⁴² <https://news.un.org/fr/story/2025/06/1156391>

¹⁴³ <https://www.revueconflits.com/faut-il-negocier-avec-liran-sur-le-nucleaire/>

منهم صلاحية تفتيش تقديرية لأي منشأة عسكرية إيرانية، لا النووية فحسب، من دون مهلة إخطار مسبق. ولن تخضع المعاهدة لأي قيد زمني.

صحيح أن خطر قبول الملالي لهذه المعاهدة مع الامتناع عن التعاون الفعلي قائم. ولذلك فإن أدنى إخلال بالمعاهدة سيستتبع تدخلاً عسكرياً فورياً من تحالف دولي يتشكل من جميع الموقعين عليها، بما في ذلك استخدام جديد لقنابل GBU-57.

ويبدو التوقيت مناسباً لفرض مثل هذه المعاهدة على الجمهورية الإسلامية نظراً إلى الوضع الاقتصادي والعسكري غير المواتي بوضوح لنظام الملالي. فهل ستسعى إيران، العاجزة عن هزيمة إسرائيل عسكرياً، إلى تفعيل أذرعها الإقليمية في محاولة لإعادة التوازن إلى المواجهة؟ وإن فعلت، فهل ستلبي هذه الأذرع النداء؟ يبدو أن حماس وحزب الله عاجزان نهائياً عن الإسهام في مثل هذه الاستراتيجية، لا سيما الحركة الإرهابية الفلسطينية التي تجد نفسها محاصرة من الجيش الإسرائيلي. أما الحوثيون، الذين يرغبون بلا شك في تجنب استئناف القصف الأميركي الذي قد يفتح ثغرة لمنافسيهم المحليين، فقد يبدون تردداً في حال استنجد إيران بهم. ولن يتبقى عندئذ سوى الميليشيات الشيعية العراقية. وهنا أيضاً، ليس من المؤكد أن هذه الأخيرة ترغب في المجازفة بالتعرض لهجمات تشنها الولايات المتحدة دعماً لتل أبيب.

كما طُرحت فرضية قيام إيران بإغلاق مضيق هرمز أو مهاجمة السفن العابرة له. وسيكون ذلك خطأً فادحاً من جانب النظام، إذ إن مثل هذا القرار سيحرم طهران من العائدات المرتبطة بتصدير منتجاتها النفطية. ثم إنه قد يُغضب الصين دبلوماسياً. وهو رهان أكثر خطورة بما أن بكين، أحد الداعمين القلائل لإيران على الساحة الدولية، تشتري 90% من النفط الذي تصدره الدولة الإيرانية¹⁴⁴. كما أن الوضع الاقتصادي لإيران لا يترك لها أي هامش للمناورة للإقدام على تجربة كهذه. فمع نمو شبه متوقف¹⁴⁵، وتضخم يُتوقع أن يقارب 43.3%¹⁴⁶، وسياق من ارتفاع معدل الفقر، تبدو الآفاق الاقتصادية للنظام الإيراني قاتمة.

وأياً يكن الأمر، فمن المرجح أن يتجه دونالد ترمب نحو أحد هذين الحلين (أي تدخل عسكري جديد أو توقيع معاهدة مقيّدة). ورغم أنه ملزم بعقيدة «أمريكا أولاً» في نظر جزء من تيار «ماغا»، ورغم أن الرأي العام الأميركي لا يحبذ تدخلاً طويلاً في إيران، فإن تبني موقف انعزالي سينطوي على خطر أكبر. فعدم حسم الملف النووي الإيراني فوراً وبصورة نهائية يعني أنه سيعود إلى الواجهة بعد بضع سنوات، وسيُلطخ إلى حد كبير إرث دونالد ترمب على رأس الولايات المتحدة.

¹⁴⁴ [https://www.france24.com/fr/émissions/dans-la-presse/20250619-pour-la-chine-washington-alimente-la-machine-de-](https://www.france24.com/fr/émissions/dans-la-presse/20250619-pour-la-chine-washington-alimente-la-machine-de-guerre-au-moyen-orient)

[guerre-au-moyen-orient](https://www.france24.com/fr/émissions/dans-la-presse/20250619-pour-la-chine-washington-alimente-la-machine-de-guerre-au-moyen-orient)

¹⁴⁵ يتوقع صندوق النقد الدولي نمواً بنسبة 0.3% لعام 2025.

¹⁴⁶ [https://fr.iranfocus.com/economy/economie/19468-fmi-iran-connaistra-une-croissance-economique-quasi-nulle-en-20](https://fr.iranfocus.com/economy/economie/19468-fmi-iran-connaistra-une-croissance-economique-quasi-nulle-en-2025/)

التصدي لعودة داعش

في امتداد لمشروعه التوحيدي، أعلن أحمد الشرع عزم الحكومة على دمج جهاديين أجنب في جيشها. ويبلغ عدد هؤلاء، الذين كانوا متمركزين سابقاً في منطقة إدلب، 3500 شخص، ينتمي معظمهم إلى أقلية الأويغور الصينية. ومن المقرر أن يشكلوا الفرقة 84 في الجيش إلى جانب مقاتلين سوريين. ويحيل قرار دمج هؤلاء الجهاديين في صفوف الجيش السوري إلى المسألة الحساسة المتعلقة بإدارة التهديد الإسلامي على التراب الوطني؛ وهو تهديد يجسده الخوف من عودة داعش.

تعود جذور دولة العراق الإسلامية إلى الحرب التي امتدت من 2003 إلى 2011. فمنذ بداية الصراع، أسس جهاديون عراقيون بقيادة أبي مصعب الزرقاوي، ينتسبون إلى السلفية، جماعة «التوحيد والجهاد»، وقادوا تمرداً ضد الحكومة العراقية والقوات الأميركية. وفي عام 2004، اندمجوا مع تنظيم القاعدة، ما أتاح ظهور تنظيم القاعدة في العراق¹⁴⁷. ويُطلق عليه أيضاً تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. وفي مقابل مبايعته، تلقى الزرقاوي، الذي سيقتل في غارة جوية أميركية عام 2006، أموالاً ومقاتلين¹⁴⁸. وفي يناير/كانون الثاني 2006، انضم تنظيم القاعدة في العراق إلى مجلس شورى المجاهدين في العراق، قبل أن يتخذ اسم دولة العراق الإسلامية منذ أكتوبر/تشرين الأول 2006¹⁴⁹. واعتباراً من عام 2007، سيضعف التنظيم بفعل هزائمه أمام الجيش الأميركي والقوات العراقية. وبقيادة أبي بكر البغدادي، الذي انتُخب على رأسه عام 2009¹⁵⁰، سيتمدد التنظيم إلى الأراضي السورية منذ عام 2011، حيث شكلت الفوضى الناجمة عن الحرب الأهلية أرضاً خصبة لارتكاب انتهاكاته. وفي عام 2013، جرى اندماج بين دولة العراق الإسلامية وجبهة النصرة التي يقودها شخص يدعى أبو محمد الجولاني، فنشأت الدولة الإسلامية في العراق والشام¹⁵¹.

ويتمتع داعش بقوة جذب هائلة، وينجح في تجنيد إرهابيين في الخارج واستقدامهم إلى سوريا. وتتغلغل الشريعة في جميع فروع نظام الحكم الذي أقامته الجماعة، ويقترب هذا النظام من الإسلام كما كان يُمارَس في بداياته. وسيستولي تنظيم الدولة الإسلامية على مدن رئيسية مثل الرقة في سوريا والموصل في العراق. ومن هذه الأخيرة سيلقي زعيم الجماعة، البغدادي، الخطاب التأسيسي لتنظيم الدولة الإسلامية في 29 يونيو/حزيران 2014، معلناً إقامة خلافته المادية. وهكذا يصبح البغدادي

¹⁴⁷ <https://www.lesclesdumoyenorient.com/Emergence-et-enracinement-de-l-Etat-islamique-1-3.html>

¹⁴⁸ <https://www.lesechos.fr/2015/11/comment-daech-est-devenu-le-groupe-terroriste-le-plus-dangereux-au-monde-2826>

22

¹⁴⁹ https://www.irsem.fr/storage/file_manager_files/2025/03/daesh-alqaeda.pdf

¹⁵⁰ <https://www.radiofrance.fr/franceinter/aux-origines-du-groupe-etat-islamique-9805445>

¹⁵¹ [https://information.tv5monde.com/international/dates-cles-du-groupe-etat-islamique-ei-en-irak-et-en-syrie-26835#:~:t=.ext=Création%20de%20l'EIL,et%20au%20Levant%20\(EIIL\)](https://information.tv5monde.com/international/dates-cles-du-groupe-etat-islamique-ei-en-irak-et-en-syrie-26835#:~:t=.ext=Création%20de%20l'EIL,et%20au%20Levant%20(EIIL))

الخليفة إبراهيم، ويطمح إلى حكم جميع المسلمين. وتجوب الشرطة الدينية الشوارع لإلزام سكان الخلافة باحترام الشريعة، في حين يرتكب الجهاديون اعتداءات في العراق وسوريا تستهدف الأقليات والغربيين على حد سواء. وهكذا سيُعدّم الصحفي الأميركي جيمس فولي في 18 أغسطس/آب 2014، وتبث الجماعة مقطع الفيديو.

وسيكون هذا القتل الشرارة التي أطلقت تشكيل تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة يهدف إلى القضاء على داعش. ويضم التحالف نحو ستين دولة، من بينها كثير من الدول الأوروبية (فرنسا، إيطاليا، المملكة المتحدة، ألمانيا...)، ودول عربية (الأردن، قطر، المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة، المغرب...)، وكذلك أعضاء في حلف شمال الأطلسي (الناتو) مثل أستراليا أو كندا. وسيشن التحالف أكثر من 13 ألف غارة جوية ويعبئ 5 آلاف جندي. وبدعم من التحالف، سيستعيد الجيش العراقي مدن الفلوجة والرمادي، والأهم الموصل. وستستعاد الرقة في أكتوبر/تشرين الأول 2017 على يد أكراد قوات سوريا الديمقراطية بدعم من التحالف. ثم فقدت الخلافة بلدة الباغوز، آخر معقلها. وبعد أن خسر تنظيم الدولة الإسلامية خلافته، سيقتل زعيمه في عملية أميركية في قرية باريشا الصغيرة في أكتوبر/تشرين الأول 2019. وإذا كان تنظيم الدولة الإسلامية قد فقد وجوده المادي، فإن أيديولوجيته لم تختف. فالجماعة تنشط الآن أساساً في أفريقيا جنوب الصحراء وفي خراسان الكبرى، ولا سيما في أفغانستان حيث تواجه حركة طالبان. غير أن الجهاديين المرتبطين بداعش ينجحون في ضرب القارة الأوروبية، كما حدث في الهجوم على قاعة «كروكوس» في موسكو في 22 مارس/آذار 2024، الذي أوقع 145 ضحية. ولا يزال نفوذ داعش قادراً على دفع أفراد إلى التحرك منفردين. فهؤلاء «الذئاب المنفردة» يرتكبون فظائع بعد مبايعة تنظيم الدولة الإسلامية. ولا تنقص الأمثلة الحديثة، مثل هجوم الدهس بسيارة في الأول من يناير/كانون الثاني 2025 في نيو أورلينز، وهي تجعل تعزيز مكافحة الجماعة الإرهابية أمراً لا غنى عنه.

وفي هذا الصدد، قد يشكل القرار الأخير للولايات المتحدة، الذي سرعان ما تبعه الاتحاد الأوروبي، برفع العقوبات التي كانت مفروضة على سوريا، رافعة فعالة للحصول على مساهمة الرئيس السوري الجديد في هذه المعركة. فبعد الالتزام الذي قطعه دونالد ترمب إثر لقائه بالشرع، سمحت الولايات المتحدة بالمعاملات المصرفية والمالية مع الحكومة السورية والمصرف المركزي السوري، وكذلك مع الشركات العامة أو شبه العامة في البلاد. وباتت الاستثمارات في سوريا ممكنة مجدداً، وكذلك شراء المنتجات النفطية السورية. وفي مقابل رفع هذه العقوبات، حصل السيد ترمب من الرجل القوي الجديد في دمشق على تعهد بطرد الإرهابيين الأجانب من أراضيه ومساعدة الولايات المتحدة على منع داعش من إعادة تشكيل صفوفه. وفي 20 مايو/أيار الماضي، أي بعد أسبوع من القرار الأميركي برفع العقوبات عن سوريا، اتخذ الاتحاد الأوروبي إجراءات مماثلة. وهكذا ستُفك أصول المصرف المركزي السوري المجمدة،

ويُفتح النظام المالي الأوروبي أمام الكيانات السورية. أما العقوبات التي تحظر بيع الأسلحة والمعدات التي يمكن استخدامها ضد المدنيين فتبقى سارية.

ويشكل رفع العقوبات، الهادف إلى منح سوريا دفعة اقتصادية جديدة وفرصة لحكومة أحمد الشرع في آن معاً، اختباراً مهماً، وسيتعين الحرص على احترام الشروط المترتبة على الجانب السوري. وأولها متانة مشروع الوحدة الذي ينادي به الشرع. فالانتهاكات الأخيرة التي ارتكبتها عناصر هيئة تحرير الشام بحق العلويين والدروز لا تبعث على الطمأنينة بشأن سيطرة الرئيس الجديد على أكثر عناصره تشدداً. وفي هذا الصدد، يجب مراقبة مشروع توحيد الجماعات المسلحة وآلياته عن كثب، إذا ما وُضع موضع التنفيذ. وإذا رفضت إحدى الأقليات، مثل الدروز أو الأكراد، الانضمام إلى القوات الحكومية، فسيتعين حينئذ أن نكون قادرين على دعمها وضمان أمنها، عبر دعم إسرائيل مثلاً، التي تقدم أصلاً موارد إنسانية لدروز سوريا وتعالج جرحاهم. كما أن الميليشيات الكردية حليف ثمين، وتتيح السيطرة على السجون الجهاديين السابقين الذين لم يعودوا محصورين في منطقة إدلب وحدها، كما كان الحال في عهد بشار الأسد. ومن جهة أخرى، يمكن للاتحاد الأوروبي أن يساعد دمشق على تدريب بعض وحداتها على استراتيجيات مكافحة الإرهاب. وسيتعين أيضاً الحصول من الأجهزة السورية على تعهد بتشديد الرقابة على الوحدة 84 التي تتألف من جهاديين سابقين. وأخيراً، قد يكون من المناسب إعادة تشكيل تحالف على غرار ذلك الذي أتاح القضاء على خلافة داعش، تفادياً لأي عودة محلية للجماعة الإرهابية، وهو تهديد حقيقي تماماً.

ذلك أن تنظيم الدولة الإسلامية، وإن كان متوالياً، أبعد ما يكون عن الاختفاء، وهو يعدّ لعودته بتكييف أسلوب عمله مع حالة قواته ومع السياق أيضاً. ورغم أن أرقام الاعتداءات التي نفذها داعش منذ سقوط نظام بشار الأسد تبدو مؤشراً على تراجع نشاطه، فإنها لا تكشف الصورة إلا جزئياً، إذ لا تأخذ في الحسبان عملية إعادة تنشيط الخلايا النائمة التي نشرها التنظيم الإرهابي في كامل الأراضي السورية، وهو ما تشير إليه صحيفة «The Arab Weekly»¹⁵². أما القوات الحكومية التي تعمل على تعقب عناصر داعش، ولا سيما عناصر الفرقة 70 في الجيش الوطني السوري الذين سبق لمعظمهم أن قاتلوا التنظيم الإرهابي في إطار التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، فتتجح في تحييد عدد من المقاتلين، لكنها تبقى أقل عدداً من أن تُحكم السيطرة على كامل الأراضي. ثم إن داعش يبدو أنه أدرك أن إعادة إقامة خلافة على غرار خلافة 2014 أمر مستحيل مادياً، على الأقل في الوقت الراهن، فهو يكيّف أسلوب عمله تبعاً لذلك. فعناصر تنظيم الدولة الإسلامية يختارون الآن استراتيجية التخفي بين السكان المدنيين، فيصبح رصدتهم أصعب. وهذا ما أكدته مصدر نقلت عنه صحيفة «لو فيغارو»، مشيراً إلى أن الإرهابيين يلزمون الصمت الآن «حتى

¹⁵² <https://the arabweekly.com/isis-reactivating-fighters-eying-comeback-syria-and-iraq>

اللحظة التي يقررون فيها الضرب»¹⁵³. ومن جهة أخرى، تشير مصادر أخرى إلى أن داعش استولى على بعض مخزونات الأسلحة في أعقاب سقوط نظام الأسد، ويوزعها على خلاياه المختلفة.

ويمكن للوسائل المذكورة في الفقرة السابقة أن تتيح السيطرة بفاعلية على التهديد الذي يمثلته تنظيم الدولة الإسلامية على الأراضي السورية. أما بخصوص قدرته على الأذى في أوروبا والولايات المتحدة، فقد تثبت مساهمة الحكومة السورية الجديدة أيضاً أنها ثمينة، ولا سيما عبر تقديم معلومات عن المواطنين السوريين أو الأجانب الذين يُعدّون خطرين ويعبرون أراضيها، بما يتيح سرعة استجابة أفضل ومتابعة الإرهابيين أو الإرهابيين المحتملين واعتراضهم. وستكون قنوات الاتصال المباشرة وذات الأولوية في هذا الصدد ورقة بالغة الأهمية لإدارة تهديد كامن.

¹⁵³ <https://www.lefigaro.fr/international/dans-le-desert-syrien-les-autorites-de-damas-lancees-dans-la-traque-de-daech-2>

كيف أعاد 7 أكتوبر تشكيل المنطقة

يمثل 7 أكتوبر نقطة تحول في تاريخ الشرق الأوسط. وقد انعكست نقطة التحول هذه على التطور السياسي لإسرائيل في وقت احتلت فيه البلاد مكانة راجحة في المنطقة (1)، وعلى تطور فلسطين في وقت وقعت فيه إسرائيل أول خطة لإنشاء دولة فلسطين (2)، وأخيراً على تطور المنطقة بأسرها حول مفارقة: فإذا كان 7 أكتوبر قد أوقف عملية التطبيع بين إسرائيل والممالك النفطية السنية، فإنه عزّز أيضاً التعاون القائم بينها بحكم الواقع (3).

ما التداعيات على انتخابات 27 أكتوبر في إسرائيل؟

بعد ثلاث سنوات من 7 أكتوبر 2023، يُدعى الإسرائيليون إلى صناديق الاقتراع للمرة الأولى مع الانتخابات التشريعية في 27 أكتوبر/تشرين الأول. ولا تزال صدمة 7 أكتوبر حاضرة، إلى حد أنها تشكّل محور النقاش في الحملة الانتخابية. غير أن النقاش، خلافاً لما يُقال في كثير من الأحيان، لا يدور حول المسؤولية الشخصية أو الفردية لرئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، بل حول مسؤوليته الوزارية. فهو زعيم إسرائيل الذي وقعت في عهده هذه المجزرة الجماعية.

وخلال هذه السنوات الثلاث الأخيرة، تغيرت أمور كثيرة بالنسبة إلى إسرائيل. ولنذكر أولاً بأن نتنياهو حقق جزءاً من أهدافه الحربية الثلاثة التي حددها في أعقاب 7 أكتوبر 2023: تحرير الرهائن (1)، وتدمير حماس (2)، وضمان ألا تبقى غزة مصدر تهديد (3). فقد أُفرج عن آخر الرهائن في أكتوبر/تشرين الأول 2025 إثر الاتفاق المبرم برعاية دونالد ترمب. وفيما يخص الهدف الثاني، وإن لم تُشَلَّ قدرة حماس على الأذى بالكامل، فقد تقرر طردها من قطاع غزة، وباتت قدرتها على الإضرار أدنى مما كانت عليه عام 2023. في المقابل، تبقى غزة مشكلة أمنية لإسرائيل ما دام مستقبلها غامضاً. وبتحقيق هدفين من أصل ثلاثة، يمتلك رئيس الوزراء الإسرائيلي إذن حججاً للرد على اعتراضات المعارضة.

غير أن 7 أكتوبر 2023 كان له أثر انتخابي ثانٍ بالغ القوة. فهو يجعل تحالف اليسار والوسط مع الأحزاب العربية، التي تمثل 20% من سكان إسرائيل ونحو 10% من الكنيست، أمراً متزايد الصعوبة. ويرغم ثقل النقاش حول 7 أكتوبر 2023 المعارضة الصهيونية على السير على حبل مشدود: إدانة إدارة نتنياهو مع رفض التساهل مع بعض الأحزاب العربية التي لا تلعب لعبة إسرائيل. وعلى الصعيد السياسي، ثمة انقسام بين الأحزاب العربية: فهناك تلك التي تتبنى خطأ تقليدياً يقوم على عدم المشاركة

في دولة إسرائيل، معتبرة أنها ليست دولتها، وتلك التي يقودها عباس، الرغبة في المشاركة في الدولة لتحسين ظروف معيشة عرب إسرائيل.

وأخيراً، على الصعيد السياسي، جاء 7 أكتوبر بقراءة جديدة للعلاقات بين العرب واليهود في إسرائيل. وهذه القراءة الجديدة ملتبسة. فمن جهة، يسود لدى كثير من اليهود الإسرائيليين شعور بأن أي سلام مع العرب سيكون مستحيلاً، ما يولد نوعاً من الإحباط. ومن جهة أخرى، شهد 7 أكتوبر مجزرة جماعية طالت اليهود والعرب على حد سواء، وهو ما قد يولد تضامناً لا حول الشعب اليهودي، بل حول الشعب الإسرائيلي.

بعد عام على خطة ترمب للسلام: العقبات الأخيرة

ثمة حقيقة يجب التذكير بها: دولة فلسطين معترف بها من 148 دولة في العالم، أي ما يقارب 75% من البشرية الممثلة في الأمم المتحدة. ومع ذلك، فإن هذه الدولة غير موجودة. لماذا؟

لن تقوم دولة فلسطين ما دامت دولتان لا تعترفان بها: الولايات المتحدة وإسرائيل. فالحصول على موافقة هذين البلدين المحوريين شرط مسبق لا غنى عنه لتحقيق هذا المشروع. وبما أن المجتمع الدولي لا يملك أي وسيلة ضغط على هذين الطرفين، فينبغي تفضيل مقاربة براغماتية تتخذ شكل صفقة. وهي صفقة لا يمكن إبرامها في ظروف مثلى إلا بعد أن تجد الحرب مع إيران مخرجاً دائماً، يتيح للمنطقة استعادة قدر من الاستقرار. كما يجب إزالة عقبات أخرى، مثل التهديد الذي يمثله حزب الله على إسرائيل. وهذا ما سعى إليه دونالد ترمب وحصل عليه في خطته للسلام بتاريخ 3 أكتوبر/تشرين الأول 2025.

ومع ذلك، أضعف الصراع مع إيران خطة السلام. غير أنه إذا انتهى الصراع الذي يضع الولايات المتحدة وإسرائيل في مواجهة إيران في ظروف مواتية للولايات المتحدة وإسرائيل والقوى السنية المعارضة لطهران، بما يفضي إلى توسيع اتفاقيات أبراهام لتشمل المملكة العربية السعودية، فسيظل يتعين تجاوز عقبات أخرى كي يصبح إنشاء دولة فلسطينية ممكناً.

والصعوبة الأولى التي قد تعرقل التهدئة الإقليمية التي لا غنى عنها لإنشاء دولة فلسطينية في ظروف جيدة هي ذات طابع أمني. فمنذ 8 أكتوبر/تشرين الأول 2023، يخوض حزب الله والدولة العبرية صراعاً مفتوحاً؛ وهو وضع لم ينجح أي وقف لإطلاق النار حتى الآن في احتوائه. وليست إرادة الولايات المتحدة في عهد دونالد ترمب، عبر المستشار الأميريكي توم براك، ولا إرادة لبنان في عهد الرئيس جوزيف عون، موضع شك. فالبلدان لا يكفان عن المطالبة بنزع سلاح الميليشيا الشيعية الموالية لإيران. ومن ثم

ينبغي أن يقتصر حزب الله على دور تشكيل سياسي، تاركاً بذلك احتكار السلاح للحكومة اللبنانية وللجيش الرسمي لبلد الأرز.

ويسير في هذا الاتجاه الاتفاق الإطار الذي وقّعه في واشنطن في 26 يونيو/حزيران 2026 سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة يحيئيل لايتير، وسفيرة لبنان لدى الولايات المتحدة ندى حمادة، والمستشار الأميركي دان هولر. وبموجب بنود هذا الاتفاق، الذي يتضمن 14 نقطة، لا يحق لأي «جهة من غير الدول» القيام بعمل عسكري. وهذه النقطة بالذات هي التي تبلور التوترات في لبنان، حيث يرفض حزب الله، الذي لا يزال يحظى بدعم واسع من الطائفة الشيعية بل وأحياناً خارجها، تسليم سلاحه. ويرى الأمين العام لهذه الذراع الإيرانية، نعيم قاسم، أن هذا الاتفاق «المذل والمخزي» يمثل «تنازلاً عن السيادة» وأنه «باطل ولاغٍ». وسيكون حمل حزب الله على القبول بنزع سلاحه خدمةً للسلام الإقليمي تحدياً كبيراً بقدر ما سيكون خسارة فادحة لإيران، التي لن تعود قادرة على الاعتماد على هذا الحليف الذي يشكل تهديداً دائماً لإسرائيل منذ عام 1982، تاريخ إقامة الروابط الأولى بين التيار الشيعي وطهران.

أما العقبة الثانية فهي ذات طابع جيوسياسي بحت، وتتلخص في رمزين: مشروع «EI». ويشير هذان الرمزان إلى مشروع لبناء 3400 وحدة سكنية في الضفة الغربية، شرق القدس. والسبب في أن هذا المشروع مثار جدل واسع هو أن تنفيذه سيعني شطر الضفة الغربية إلى قسمين، شمالي وجنوبي، ما يجعل ممارسة دولة فلسطينية محتملة لسيادتها على الضفة الغربية شبه مستحيلة. وكما تنقل صحيفة «نيويورك تايمز»، يشجع بتسلئيل سموتريتش، وزير المالية الإسرائيلي، هذه الإنشاءات، معتبراً أنها ستؤدي إلى «دفن فكرة الدولة الفلسطينية».

أول 7 أكتوبر بعد الحرب على إيران: ما التداعيات الإقليمية؟

كما ذكرنا سابقاً، تحل الذكرى الثالثة لـ 7 أكتوبر 2023 في وقت لا تزال فيه الحرب مع إيران قائمة.

وكانت عمليتا «زئير الأسد» (Roaring Lion) و«الغضب الملحمي» (Epic Fury)، اللتان أطلقتهما إسرائيل والولايات المتحدة بشكل مشترك، تهدفان إلى إزاحة التهديد النووي الإيراني نهائياً وإسقاط نظام الملالي. وفي نحو 40 يوماً، شنت تل أبيب وواشنطن نحو 24 ألف ضربة على الأراضي الإيرانية. غير أن أهداف هذه العملية لم تتحقق إلا جزئياً. فمن جهة، لا يزال مكان الـ 440 كيلوغراماً من اليورانيوم المخصب التي لا تزال في حوزة طهران مجهولاً، ومن جهة أخرى، ورغم اغتيال المرشد الأعلى الإيراني آية الله علي خامنئي، صمد النظام. أما نجل آية الله، مجتبي خامنئي الغامض، الذي يقول البعض إنه

مصاب بجروح بالغة الخطورة، بل ومشوّه الوجه، فلم يظهر علناً حتى الآن، لكن الحرس الثوري أحكم قبضته على المجتمع الإيراني من دون أن ينتفض هذا الأخير مجدداً.

والأدهى أن النظام الإيراني بات يملك ورقة ثقيلة جديدة لم يستخدمها من قبل: إغلاق مضيق هرمز الذي كان يمر عبره، في الأوقات العادية، نحو 20% من النفط العالمي. فإغلاق هذا المضيق، تمتلك إيران وسيلة ضغط على الاقتصادات الغربية، وهي إضافة جديدة إلى ترسانتها لا تتوانى طهران عن استخدامها.

وفي هذا الصدد، بدأ أن وقف إطلاق النار في 8 أبريل/نيسان الماضي، وكذلك مذكرة إسلام آباد في 17 يونيو/حزيران، محكوم عليهما بأن يكونا مؤقتين، نظراً إلى صعوبة التوفيق بين مواقف الطرفين. فإيران لا ترغب في التخلي عن مخزونها من اليورانيوم المخصب، فضلاً عن قبضتها الجديدة على مضيق هرمز، وهو ما لا يمكن لإدارة ترمب أن تقبله بأي حال. كما تتخلل المفاوضات تبادلات للضربات الجوية التي تستهدف أهدافاً إيرانية رداً على هجمات على السفن العابرة لمضيق هرمز يشنها نظام الملالي. ومن جهة أخرى، كثيراً ما تستهدف إيران القواعد الأميركية في الشرق الأوسط. وقائمة الدول التي تعرضت بذلك لهجمات إيرانية طويلة: الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، وقطر، والكويت، والبحرين، والأردن، وكذلك العراق.

وأمام هذا الخطر الأمني الجديد، وأمام حماية أميركية تعدها الدول المتضررة منه ضعيفة جداً، لا بد من الإقرار بأن القضية الفلسطينية تراجعت في أجندة الدول المعنية. فقد باتت تتقدمها المسألة الأمنية، وكذلك البحث عن حلول اقتصادية لتعويض إغلاق مضيق هرمز، والسيطرة الحديثة على مضيق باب المندب إثر هجوم شنه الحوثيون، وكلاء إيران في اليمن، الذين يتمتعون مع ذلك بقدر من الاستقلالية إزاء نظام الملالي.

ولهذا القلق الجديد على أمنها، لدى دول كانت تظن نفسها بمنأى عن أي استهداف بفضل حماية واشنطن المنهكة، نتيجتان: الإغراء الدبلوماسي بالتقارب مع طهران، الذي ظل حتى الآن عديم الجدوى إلى حد كبير، وإبرام تحالفات جديدة ليست أكثر جدوى (أي أن المملكة العربية السعودية وباكستان وتركيا وقّعت اتفاقاً استراتيجياً للدفاع المشترك في 7 أغسطس/آب 2026). وفي عدم فاعلية هذا الاتفاق، «ميثاق مكة»، تحديداً يكمن الأمل في توسيع اتفاقيات أبراهام.

خاتمة

إن الأحداث الجارية في الشرق الأوسط كثيفة جداً، ورهاناتها وتبعاتها لا تقتصر على البلدان التي تنتمي إلى هذه المنطقة ذات التاريخ الغني بقدر ما هو معقد. فالإشكاليات كثيرة، وبعضها قديم بل تاريخي، وتستدعي تقديم أجوبة ملائمة لمختلف السياقات.

وعلى المدى القريب جداً، يشكل وضع حد للصراع بين إسرائيل وحماس والتوصل إلى سلام دائم بين الإسرائيليين والفلسطينيين الهدف الرئيسي. وهذا ما ينبغي أن تتيحه المفاوضات الجارية بشأن اعتماد الخطة التي اقترحها دونالد ترمب، إذا تكللت بالنجاح وإذا جرى تحسين هذه الخطة كما نقترح. ويتعين على المجتمع الدولي على وجه الخصوص أن يقف إلى جانب الشعب الإسرائيلي في حداده على الفظائع التي تعرض لها في 7 أكتوبر 2023. وسيتعلق الأمر بإحلال السلام في المنطقة عبر مواصلة تطبيع العلاقات بين إسرائيل والدول العربية، وصولاً إلى تحالف كبير لمكافحة الإرهاب الإسلامي، يعود بالنفع أيضاً على فرنسا المنخرطة بالكامل في هذه المعركة.

وبالتوازي مع ذلك، يجب شلّ قدرة «محور المقاومة» على الأذى نهائياً. ويمر ذلك عبر نزع سلاح حزب الله، والإطاحة بالحوثيين، والسيطرة على الميليشيات الشيعية العراقية، وكذلك عبر استراتيجية احتواء حقيقية تجاه إيران لضمان توقف طهران عن تسليح أذرعها وتمويلها. كما سيتعين إقصاء إيران من نادي القوى النووية. ويبدو أن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك يمر عبر حل هجين يجمع بين اتفاق شديد التقييد واللجوء، عند الضرورة، إلى تدخل عسكري من تحالف.

ويستدعي تهديد الإرهاب الإسلامي وتهديد الإسلام السياسي كلاهما رداً واسع النطاق وتعاوناً بين الأطراف الدولية. فالهجمات الأخيرة لـ«الذئاب المنفردة» تُظهر أن داعش لم يعد يركز فقط على إعادة إقامة خلافة، بل بات يخوض الجهاد العالمي الذي كان في ما مضى حكراً على تنظيم القاعدة. والطريق نحو شرق أوسط يعمّه السلام ليس خالياً من الصعوبات، لكنه موجود.

بقلم إدوار شابلو-مايستراتشي (Edouard Chaplault-Maestracci)، محلل الشؤون الدولية في «لو ميلينير» (Le Millénaire).
أنترانيك كيفوركيان (Antranig Kevorkian)، محلل الشؤون الدولية في «لو ميلينير».

مساهمات:

بيير كليرييه (Pierre Clairé)، نائب مدير الدراسات في «لو ميلينير»، متخصص في الشؤون الدولية والأوروبية.

ماتيو هوك (Matthieu Hocque)، المدير العام لـ«لو ميلينير».

حقوق الصور: Benjamin Netanyahu 2012، من U.S. Department of State، عبر Flickr وWikimedia Commons، ملكية عامة (public domain building CC0). (photo)

الصورة الرسمية للأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود، من Saudi Press Agency (وكالة الأنباء السعودية)، عبر Wikimedia Commons، بموجب رخصة CC BY-SA 4.0.



«لو ميلينير» (Le Millénaire) مجموعة تفكير متخصصة في قضايا السياسات العامة. وتضم نحو مئة مساهم من آفاق متنوعة: كوادر من القطاعين الخاص والعام، وباحثون، ورؤساء شركات، وكل منهم خبير في مجاله.

الرئيس: William THAY

المدير العام: Matthieu HOCQUE

نائب الرئيس: Olivier BODO و Gilles BÖSINGER

مدير الدراسات: Clément PERRIN

نائب مدير الدراسات: Florian GERARD-MERCIER و Pierre CLAIRE

التواصل: communication@lemillenaire.org

الصحافة: presse@lemillenaire.org

ولمتابعة جميع أخبار «لو ميلينير»: <http://lemillenaire.org>

إشعار قانوني: يخضع هذا التقرير بأكمله للتشريعات الفرنسية والدولية المتعلقة بحق المؤلف والملكية الفكرية. وجميع حقوق النسخ محفوظة لجمعية «لو ميلينير» (Le Millénaire)، ويحظر حظراً تاماً نسخ هذا التقرير كلياً أو جزئياً على أي وسيط كان، إلا بإذن صريح من رئيس الجمعية.